ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا

قصص

مكاوى سعيد

سلسلة
أصوات أدبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• ليكن فى علم الجميع
سأظل هكذا
• مكاوى سعيد
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
28اص. 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية:
محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ٣٢٢٠/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 1-046-479-977-978
• المراسلات :
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين
سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)

• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : 23904096

399

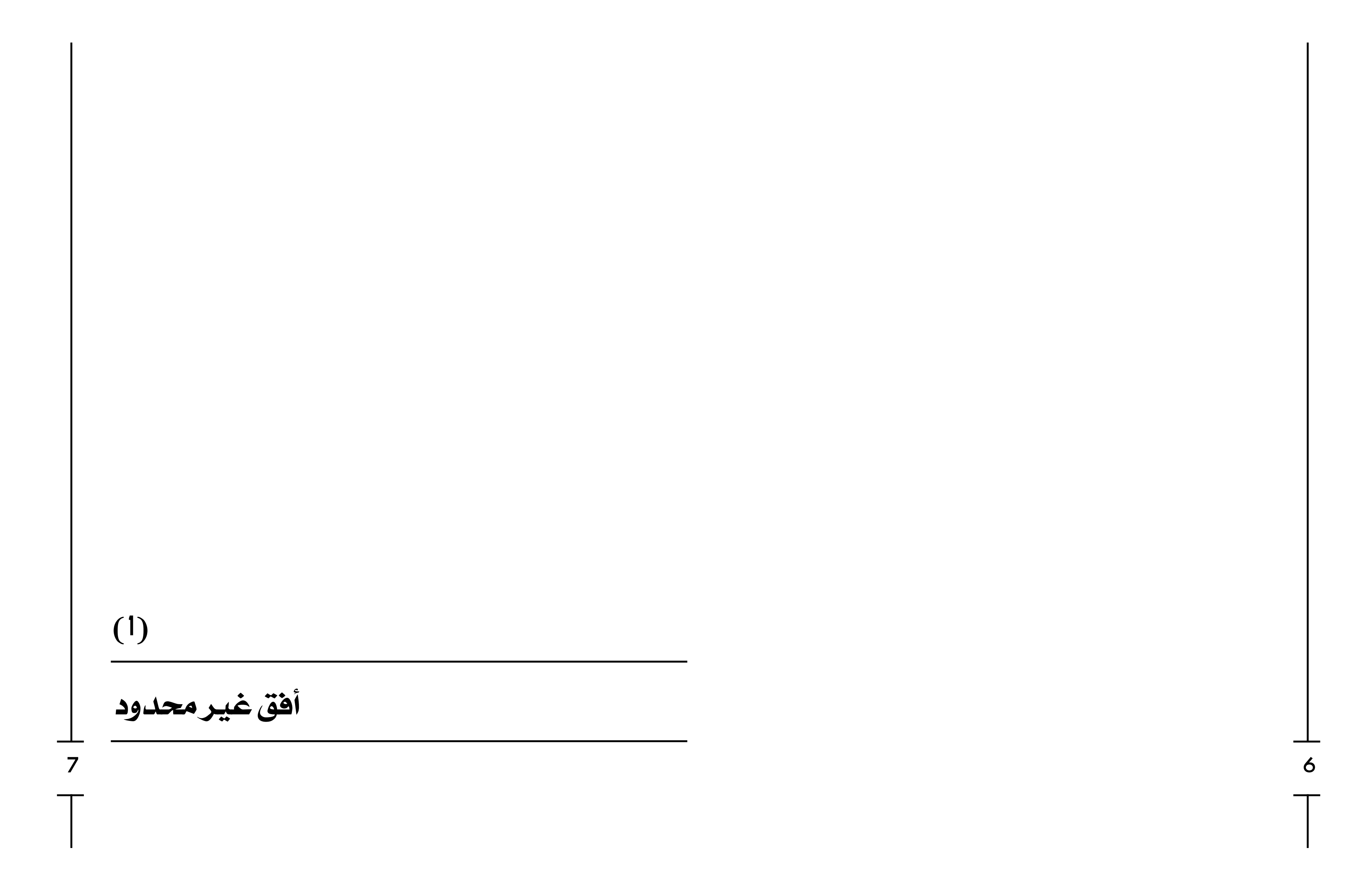
سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداع أدباء مصر
فى الشعر والقصة والرواية

ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا

إهــــداء

إلى الذين وقفوا بجانبى طويلاً
ولا أدرى السبب ..!!
وأخص بالذكر أمى - رحمة الله عليها -
وأختى التى ما تزال تتعهدنى
بالرعاية.

مكــاوى



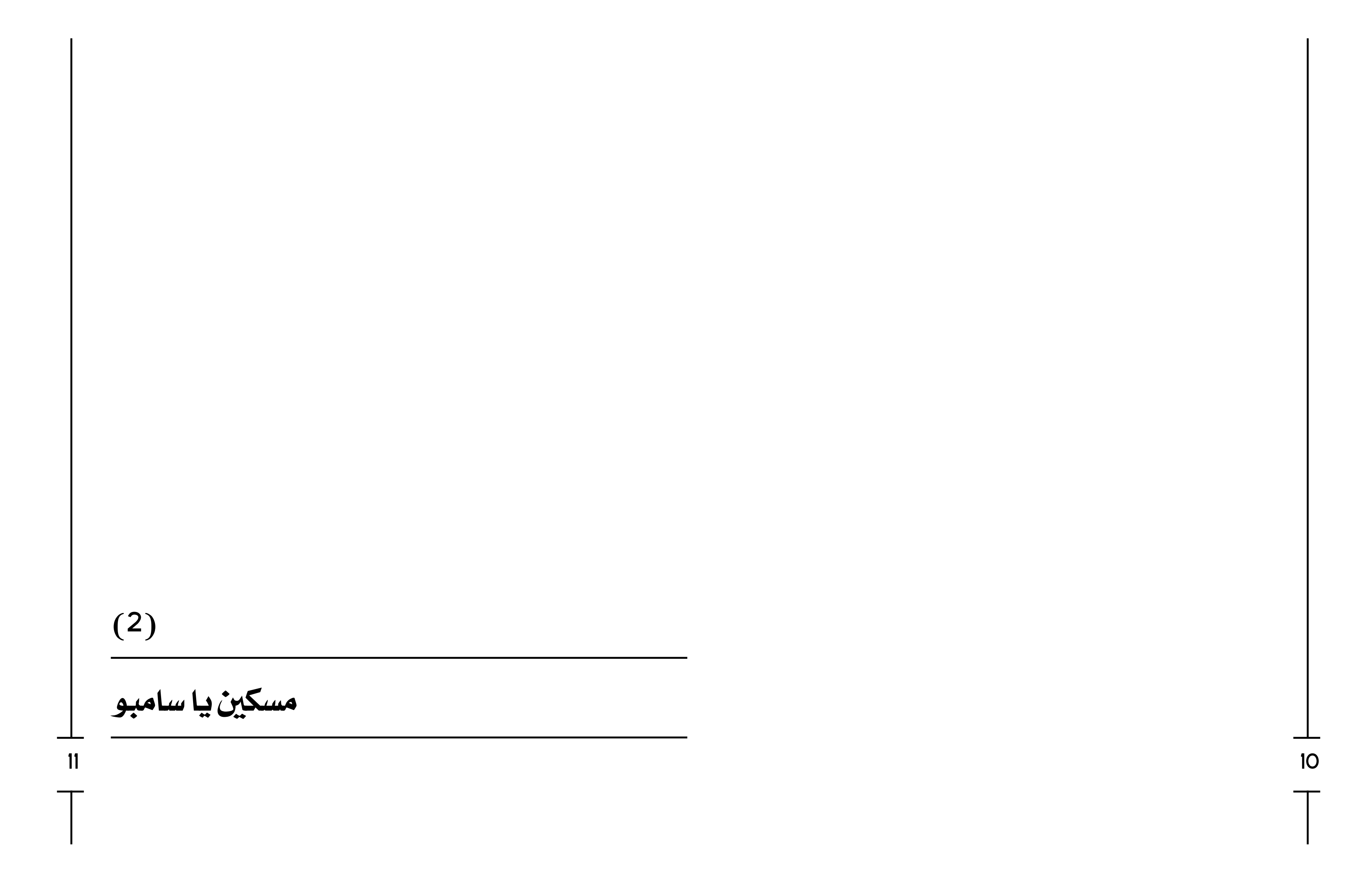
(١)

أفق غير محدود

كـان قـد بـلغ به الـوجـد مداه وارتـد طـفلاً صـغـيـراً يـجن بالأشـياء .. وتـلبسته عـفاريت ومردة وأولياء، فتصورها فى أفاريز المحلات وأضواء السيارات وفى إشارة الشرطى بالتوقف الإجبارى وخنوع سائق الأجرة بالامتثال وثورة الأنثى المتمردة داخل (الباص) وفى أنين المحروم حين يغلبه البكاء ...

وحـين تقـابلا كـانـت لا تـزال تـعانى مـن حذائـهـا الـضـيق والـصـيف الحار، ولما انـتحى بـهـا لم تـخفف المظلة الخشبـية سياط الشمس المنهمرة، ولا أوقفت تدفق قطرات العرق تحت الإبطين ... لكن رغم ضيـقها الشديـد أخفت انفعالها خلف الوجه الشمعى وقالت (فقط قالت) : بعدين ... بعدين ...

ثم افترقا كقوسين متنافرين ... سريعا هو باتجاه سماء وأفق غير محدود وهى ببطء تتحسس حجارة الطريق وتغالب ألم القدمين.



(2)

مسكين يا سامبو

ساعة المغربية لما تملك التعب سامبو، جرجر أقدامه متسللاً من خلال حديقة المنزل، مختصرا طريق عودته، ثم نزل الدرجات الأسمنتية المتآكلة حتى ارتاحت أقدامه على أرضية البدروم الرطبة الترابية، وبحذر وقف متلصصا ومتنصتًا لصوت كركرة جوزة عزت، وعندما لم يسمع صوتها، اطمئن وآمن ومر من أمام باب الغرفة بتؤدة، كان هناك ارتباط شرطى مؤلم فى جمجمة سامبو بصوت الكركرة... فمادام صوت الكركرة مسموعا وصداه يلعلع ويعربد فى أرجاء البدروم، فهذا ليس له إلا معنى واحد... أن عزت فى حالته غير الطبيعية وأنه بمجرد أن يمر سامبو من أمام الغرفة، سيلقى عليه عزت بأى شىء فى متناوله ... حذاء ... طفاية ... حجر الجوزة ... إن شا الله حتى

بساطور اللحم – وقد فعلها مرة – ظن سامبو فى بداية الأمر ، أن عزت يلاعبه ، لذلك أعاد له حذاءه كريه الرائحة وهو يهز ذيله ، لكن بمجرد أن طار مبسم «لاى» الجوزة ومر بجوار أذنه مخترقا حاجز الصوت ، أدرك سامبو أن عزت هذا شخص غير مأمون العواقب فقرر تجنبه وتفاديه .

اقترب سامبو من الحمام ورقد أمام بابه المفتوح ، وداعبت بطنه بلولة البلاطات الأسمنتية المهترئة ، وانتشى أنفه وهو يتشمم الروائح بعمق ومحبة ، بينما كان ينظر بتكاسل تجاه غرفة صديقه هاشم التى بنهاية البدروم ، ثم ألقى برأسه متوسدا قدميه الأماميتين وبجفون متثاقلة بدأ فى تخيل ما يفعله هاشم الآن . . . ؟

على الأغلب ، إنه يكوى خلف البنك الذى يتصدر شباك الغرفة ويواجه الشارع ، يحدق فى أرجل العابرين والعابرات مترنما بمقاطع من أغانى عبد المطلب ، وهو يتحرك بمهارة بلياتشو محنك داخل الحيز الصغير فى الغرفة بين السريرين ، سرير الزوجية الذى بمنتصف الغرفة إلى اليمين وترقد عليه أكوام بقج ملابس الزبائن فى انتظار الكى . . . وسرير الطفل الذى تجاوره الملابس التى تم كواها ، هذا الممر الصغير الذى لا يتجاوز عرضه النصف متر ، والذى كان على هاشم أن يخترقه كثيرا طيلة اليوم ذهابا وإيابا وبسرعة حاملا المكواة لتغييرها من بيت النار القابع بنهاية الغرفة ، . . . وكثيرا ما

كاد يتعثر فى قدم أو ركبة زوجته وهى جالسة على السرير الكبير تفلى رأس طفلها بشرود . . . أو تقص الملابس القديمة على هيئة أشرطة ملونة ليعيدها لها بائع السجاجيد القديمة سجادة أو كليما . . . أو . . . ووجهها ينز بالعرق أثناء إعدادها وجبة شهية من الزفر بعد مناهدة طويلة فى السوق ، عادت بعدها بحصيلة لا بأس بها من أرجل وحواصل الدجاج وبضعة مكعبات من شوربة «ماجى» . .

وكان هاشم يسب الحياة كثيرا . . . وهو يتعامل مع الزبائن . . . أو وهو يتفادى بمعجزة كل لحظة أن تصطدم المكواة الملتهبة بوجه طفله أو زوجته أو أن يتعثر هو بها فتقع على حجره وتقضى على رجولته (شيئه الوحيد الباقى له فى هذه الحياة) . . . وإذا عاندته النار وكثيرا ما كانت تفعل ، كان يصعد إلى نهاية السرير الكبير قبالة خزان النار ويتجرد من ملابسه السفلية تماما ويظل يبول على موقد الكيروسين العتيق وهو يسب الموقد والدنيا بسباب فاحش ، ثم يضع رأسه حانقا فوق بقجة الملابس الضخمة وهو يختلس نظرة إلى موقد الكيروسين وعندما يجده قد توهج واعتدلت ناره يبتسم ثم يرقص مترنما : السبت فات . . . والحد فات . . . وبعد بكرة يوم التلات .

أما عزت فله أكثر من حكاية . . . فبصفته طباخ صاحب البيت . . . له كلمة وهيلمان . . . ومن جبروته وسطوته أنه

يستطيع الإتيان بأصدقائه إلى غرفته لتعاطى الحشيش فى أى وقت ... صباحا أو مساء ... دون خوف أو رهبة ... وربما هو الذى احتك أو أحد أصدقائه - الله يعلم - بزوجة هاشم أثناء دخولها الحمام ... أو قد يكون سبب ثورة هاشم عليه الغرزة التى ينصبها فى غرفته على مدار أيام الأسبوع ... فكثيرا ما كانت تنشب بينهما المنازعات والتضارب بالأيدى والأرجل ثم الخصام الذى يعقبه سريعا الصلح بالقبلات والأحضان ...

وأنت الذى ورطت نفسك يا سامبو بينهما، عندما اعتقدت لضيق أفقك أنك تحمى صديقك هاشم وأنت تعض عزت فى قدمه أثناء إحدى المنازعات ... وكما هى العادة ... تصالحا بعدها وبكيا فى أحضان بعضهما ... لكن عزت لم يغفرها لك مطلقا ...

أحداث مريبة تحدث هذا اليوم، وهذا اليوم بالذات من أوله لا يطمئن بخير، انتفض سامبو من رقدته وسار فى اتجاه غرفة هاشم، أربكه سكون الغرفة وكان غير منتبه للقفل الضخم الذى على بابها، ظل يحك رأسه وقدمه بالباب، فلم يفتح، استسلم ورقد متوجسا ... وبين اللحظة والأخرى يتلفت منزعجا خوفا من مداعبات هاشم الثقيلة له، فكثيرا ما كان يفتح الباب متلصصا ثم يمرر المكواة الساخنة بجوار وجه سامبو الذى يفر بعيدا تطارده ضحكاتهم الصاخبة،

ويعود سامبو بعدها ليدس رأسه داخل الغرفة وهو يراقب هاشم بدهشة وهو يقرب سطح المكواة الساخن من خده وعندما يطمئن لنارها يدق بها بحماسة على القميص أو البنطلون الراقد باستسلام على البنك، وسامبو ينتبه أكثر لزوجة هاشم التى كثيرا ما تدخل وتخرج من الغرفة بالكثير من الجلبة والضجيج، حاملة أوانى تزيدها حجما على حجمها أو خضراوات اصفرت من التلف ولحما لا ينهى رائحة فساده رشه بالفلفل الأسود أو دعكه بالليمون والبصل.

ما الذى بينك وبينها يا سامبو ؟... ولماذا تصر على إيقاظك وأنت فى أحلى نومة بركلة فى بطنك أو بدلق دورق المياه على رأسك ؟... وحتى عندما تتفضل بإعداد طبقك - غير المميز على الإطلاق - تنهرك وهى تضعه أمامك ثم تسبك وهى ترفعه ...

بدأت الآن تتصاعد أصوات آتية من الخارج، والتقطتها أذنا سامبو بمهارة، فانتبه، وتردد، ثم قرر أن يخرج ليستطلع الأمر، لكن الأصوات تصاعدت أكثر واقتربت بشدة، وعلى مدى البصر بامتداد البدروم، رأى سامبو هاشم يدخل أولا وخلفه زوجته تحمل الطفل، أعد ذيله للتحية لكن سرعان ما خفضه ودسه بين إليتيه عندما لمح عزت خلفهما وبصحبته رجل آخر ضخم الجثة يشخط وينتر فى كل اتجاه، وتوالى

دخول الرجال و «هوهو» سامبو مرتين من قبيل أداء الواجب ثم لبد أسفل المنصدة الخشبية التى على يمين غرفة هاشم وتتخدها زوجه مطبخا، ومضت عيناه تستطلع الداخلين فى ذهول وهو يزوم بصوت مكتوم وبخوف، ويصله سباب هاشم المنفعل جدا وبكاء زوجه ودعواتها على البيت وأصحابه، والشتائم المتبادلة التى تتخللها النصائح الأبوية... وقد تعلم سامبو عدم التدخل بعد الدرس المؤلم الذى تلقاه من عزت، لذا قال لنفسه «خناقة وتعدى» وسكن فى مكانه ...

لكن الأمر الآن يبدو مختلفا يا سامبو، فهاشم يخلى غرفته والرجال يحملون ما بها إلى الخارج والرجل الضخم يتسلم الجدران ويضع أكثر من قفل ضخم على بابها .. ومازلت فى ذهولك ودهشتك يا سامبو ... حتى وأنت تتابع السيارة النصف نقل وهاشم يملؤها بكراكيبه وزوجه تحتضن طفلها دامعة العينين بجوار السائق، وأشخاص عديدون يودعونهم وبعضهم يرفع الأيدى بالدعاء أو يضرب الكف بالكف ... كما أنك أجهدت نفسك كثيرا يا سامبو بالجرى خلف السيارة... وها أنت تعود مستسلمًا، تنتظر عودة هاشم، وستظل لأيام كثيرة تالية فى انتظاره، تنبح وتزوم بمرارة، وطوردت بالطبع كثيراً ... من عزت ومن صاحب البيت، واتسمت المطاردات هذه المرة بالقسوة والوحشية ...

حتى بت تعتقد أنك غير مرغوب فيك فى هذا المكان، لذا بادلت عزت الغباء وهاجمته أكثر من مرة متجاهلا عصاه وحزامه، بل تماديت أكثر وأكثر وكدت تعض الرجل الضخم وهو يخرج من سيارته، وربما حل بك جنون وأنت تنطلق ليلا فى الشوارع الملتفة بالبيت وتطلق سيمفونيات من العواء تفتك برأس عزت وصاحب البيت وتقلق الجيران، والحال هو الحال والباب مغلق بإحكام وهاشم لم يعد، الذى عاد أكثر من مرة ... رجال رسميون فى عربات مقفلة حاملين الشباك... الذى عاد أكثر من مرة رجال رسميون فى عربات مكشوفة حاملين البنادق ...

وفى الصباح، حين يجول عزت وصاحب البيت بين جثث الكلاب الكثيرة الملقاة، وهما يقلبانها بأرجلهما بتشفٍ، ثم تكتظ ملامحهما بتعابير الفشل والإحباط، وحينما كانا يعودان بخيبتهما، كنت لحظتها فقط تهز ذيلك فى مكمنك.

وظل عواؤك يا سامبو يعلو كل يوم وظلت محاولة اصطيادك فاشلة ... فاشلة ...

مسكين يا سامبو، لم تدرك أن حجرة صديقك هاشم، صدر حكم قضائى بإخلائه منها مؤيد فى الابتدائى والاستئناف، لأنه غيّر النشاط من سكن إلى محل، وأنك إن ظللت تعوى إلى الأبد، فلن يعود هاشم، وإن ظللت تعوى

بمرارة هكذا ... فسيقتنصوك ... سيقتنصوك ... فدماغ عزت الخربة وحشيشه الفاسد يدفعانه دفعا لأن يجدّ فى إثرك كل يوم، وصاحب البيت لبسه الجنون تماما وأقسم برأس أبيه أن يعلق رأسك على بوابة البيت كما كان يفعل أجداده فى الأيام الخوالى، كما أن هناك عضوا بمجلس الشعب اقترح اقتراحا عبقريا على نواب المجلس وهو .. القبض على كل كلاب مصر المحروسة وبيعها إلى دولة كوريا الصديقة ليأكلوها هناك ... مصيبة ... نعم، لكن هناك مصيبة أكبر ليتك أيضا تعلمها، فقد أوصى أستاذ جامعى مرموق وعينه على جائزة نوبل فى مقال له بجريدة الأهرام باصطياد كل الكلاب التى تجول بأرضنا الغالية وإرسالها إلى منطقة العلمين التى بها أكثر من خمسة وعشرين مليون لغم لتطهيرها من هذه الألغام وبذلك نستفيد من المساحات المهدرة التى تتجاوز ١٠٪ من مساحة أرضنا التى إلى اليوم بعيدة عن الاستغلال.

... فكرة عبقرية جدا ... تستحق بجدارة جائزة نوبل

... مسكين يا سامبو ... (هتلاقيها منين ولا منين).

(3)

انفــلات

كانت بيننا حكاية لم تتم، ومحاولة فاشلة للانتحار تركت أثرا مشوها على جانب خدها الأيمن، وشريطا داكن اللون كإسفنجة مليئة بالثقوب ممتدا من أعلى الذراع اليمنى حتى الأنامل، وعارا لاحقهم حتى رحلوا ذات ليلة سوداء متسربلين بالظلام.

وكنت الفاعل وقد أدهشني كثيراً أنها لم تبح باسمي لأحد، رغم أني كنت أموت منهم رعبا كل يوم وأحيانًا خجلاً من نفسي ... تمامًا كهذه اللحظة التي أجلس فيها أمامها وهي تقلب الأوراق لتعطي توقيع الموافقة ... وكنت متأكداً من انتقامها ومتوقعًا الرفض ... عاقداً العزم على اقتحام «القمسيون» غرفة ... غرفة ... طبيبًا ... طبيبًا ... شاكيًا منها إذا لزم الأمر حتى أحصل على الموافقة فلن أضحي بابنتي

الأخرى مقابل ماضٍ لم يعد يهم أحداً .

رفعت رأسها من فوق الورق وقالت بأسى : مرض نادر بالدم لا يصيب إلا واحدا فى المليون . . .

قلت بحدة : أختها ماتت العام الماضى من نفس المرض . . .

بان على وجهها الألم وتساءلت : زواج أقارب . . .

أومأت برأسى . . .

تحركت يدها العاجزة بصعوبة على الورق ثم قدمته لى بابتسامة لن أنساها أبدا وهى تقول : بالسلامة ترجع بها بإذن الله . .

شكرتها ودموعى تكاد تقف حائلاً بيننا ثم تمالكت نفسى وقلت : ربنا يحمى أولادك . .

غابت عيناها فى تأملٍ صامت و أوشكت ابتسامتها أن تذوب لكن بجهد كبير استعادتها وهى تقول : لم أتزوج . . فاتنى القطار . . .

خارج غرفتها كان أمامى بابان للخروج ورغم ذلك كنت عاجزا عن الانفلات . . . .

(4)

العصافير

حينما ترازلت ذبابات سمجة ومضت تتلمسهما بوقاحة وقلة أدب في كافة المساحات المكشوفة، حركت الفتاة رأسها كدب كسول في نهاية بياته الشتوى طاردة لهم، ثم مسحت بيدها النحيلة خيط لعاب رفيعا كان يمتد من إحدى زاويتى فمه المفتوح وينتهى متواريا داخل شعيرات صدره وقبلته قبلة سريعة لم توقظه، فدست رأسها في صدره وقهرها التعب فغفت دقائق معدودات هبت بعدها مذعورة على مسحات لسان خشن ولزج لباطن قدميها، وفجأة أحست أنها انكشفت أمام طريق عريض ومستو تنبره سيارات مجنونة قلما تهدأ، فهبطت بسرعة وتكورت حول نفسها غير آبهة لضغطها الشديد على بطنه، فقط ناظرة برعب إلى حافة الصندوق ومتتبعة فرار القط باندهاش مجنون...

وكان هو أكثر منها إدراكا لموقفه لما أيقظه الألم فبنظرة شاملة وسريعة لحدود المكان تيقن من واقع حلمه الكابوسى فاحتضنها وهى ماتزال متكورة وظل يجاهد ألا يهزمها الخوف فتجاهر بالمكاشفة، واستمر يضغطها بين ذراعيه وصدره ضغطا حاول بقدر إمكانه ألا يقترب من الحدة فبدد بعض روعها، وحين أغمضت عينيها مستسلمة لظلمة تامة وسكون شارع لم يحن بعد أن يستيقظ، خدرتها تماما رائحة عرقه، بينما أسند هو ذقنه عند منبت «فيونكتها» الصغيرة التى كانت قد أدهشته ليلتها وألحت عليه فى مطاردتها فوق الكوبرى الحديدى وجعلته يتابعها بجهد، والنيل يحدهما ويسندها بذراعيه إذ تتعثر ويمسح دمعاتها بمنديله الورقى، وكان ملمس خدها أشبه بوسادة حريرية أسلمته لخدر جميل وأنسته مؤقتا مخاطر على وشك الهبوب ومع ذلك ارتفع بعينيه قليلا، ومن خلال شبورة باهتة رأى نوافذ تتأهب للانفتاح وهلاميات على وشك أن تبين وقرص شمس رغم بعض الغيوم عاقد العزم على السطوع، فانتبه لورطته ومال رأسه قليلا حتى امتلأ أنفه برائحة صابونها الرخيص وتذكر استسلامها المدهش له ... ببضع كلمات وبعض تعاطف وقليل من الوعد ... خضوعها التام بقدرية تتنافى تماما مع هروبها ... ذوبانها الكلى فيه .. عدد الغرف التى استعارها من الأصدقاء ... كم المصاعد التى طرد وهرب منها ...

المنازعات الرخيصة مع زملاء يحلمون بالاقتسام ... الأخبار التى تتسرب للعائلة ... أطنان المعاناة حتى لكأنه اختزل عمره كله فى الخمسة عشر يوما الماضية ... القروض، والرهون، الأحلام، والأمانى التى يسقيها لها قسرا كل يوم كالأم حينما تكون حريصة على أن يشب طفلها فتوة يأخذ بحقها من المجتمع كله ...

وحين أضحت القاهرة بهما خانقة كفوهة قارورة اختبار ... لمعت بذهنه فكرة الرحيل وكعادته فى إهمال الجزئيات، رمى بجسده على رمل الشاطئ، وتركها تعبث بأصابعها المسحوبة فى بيوت من رمال، متأملا بإعجاب طفولتها الغالبة على ضحكها، ومرحها وشقاوتها وعدم إدراكها الكامل عمق المأساة وجسد الثامنة عشرة عندما يتفجر بالحياة ... مهملا تماما أن مساء سيجىء، يعقبه ليل رهيب بقوة طرد جارفة سيحيل الشط إلى صحراء قاحلة وإضاءات ستخفت وتخبو بينما صقور ستنشط فى أشكال مختلفة: لصوص ... حراس .. صفافير ... مطاردات ... وكانت قد تركت له رأسها آمنة بقدرته على القرار، بينما كان هو متخبطا تماما فى ظل تأمله بدائل مجنونة للمبيت كالدكك الحجرية... أمام كبائن المصطافين ... الانزواء فى مقهى للصباح ... العودة لجحيم القاهرة والنوم بالقطار، ثم راقت له فكرة أشد جنونا عندما لمح أحد هذه الصناديق العملاقة الجديدة التى

ينم لونها الفضى عن عدم البدء فى استعمالها للقمامة، فداعبها بالفكرة وهو يحذر رد فعلها وأدهشه جدا وقفتها أمام القائمين المعدنيين اللذين يحملان الصندوق كمدمن الماكستون فى انتظار الحقنة وتأملها الباهت للصندوق وهزة رأسها المتخاذلة بالموافقة ولم يكن فى موقع المفاضلة ولم يكن ينتظر أكثر من هذه الإيماءة بعد أن أضناه جهد اليوم، فتلفت مستطلعا الطريق ثم صعد على القائمين ممسكا بالحافة مادا إليها يده بالمعاونة وحينما التقيا داخله، تعاونا معا على إلقاء أكواب الجيلاتى وفوارغ المشروبات وبعض الصناديق الكرتونية المحتفظة بفواكه فاسدة وانتقيا بعض القش غير المتسخ من عطن الفاكهة، فرشا به قاع الصندوق المعدنى وبيديها الناحلتين سوته كحمامة تتأهب لوضع بيضها ...

لما بدأت حرارة الشمس تقهر بعنف العتامة، أفاق لنفسه وانتقض جسده من خوف مجهول زاد من تجسده أمامه صوت جهورى أتى يسبح إليه من بعيد حتى استقر أسفله تماما، ارتفع برأسه قليلا حتى تجاوز رأسه حافة الصندوق ونظر إلى أسفل فوجده أمامه .... بهلول من البهاليل الذين تمتلئ بهم الحياة وبيده عصا غليظة تشير إلى عربات لا تتوقف وأشخاص غير مرئيين وهلاميات طائرة، يصرخ فيهم بعمق متهمهم بالكفر والغفلة ومتدرجا بالسباب حتى أفحشه، لكن لا أحد يهتم بما يقول ولا نوافذ فتحت ولا سيارات

توقفت ... هو فقط الذى استبد به رعب قاتل وأحس بأن متعة الليالى الماضية ربما تنتهى نهاية مأسوية اليوم بيد هذا المعتوه، الذى شاء القدر أن يوجد فوق موقعه المختار، وكان قد أحس أيضا برعدتها جواره، فهمس لها بألا تخف، ثم ارتفع مبرزا رأسه، مكشوفا أمام البهلول أثناء دورانه المستمر فى كافة الاتجاهات، وقد تحير المعتوه قليلا وهو يرى الرأس البارز وصرخ سابًا إياها ثم مد يده بالعصا تجاهها فاختفت ...

وكان المطلوب الآن تفكيرا سريعا وذكاء متقدا، وقد أعانه خوفه الشديد على التمسك بأول فكرة لاحت أمامه فأمسكها من كتفيها وهو يجاهد أن تخرج فكرته لينة إليها، ولرغبتها الجنونية فى النجاة سريعا لم تقترح بديلا، وراقبته وهو يستدير ثم يرتفع بنصف جسده فوق الحافة ويخاطب الرجل، ونفذت تعليماته بدقة، مستديرة إلى الجانب الآخر من الصندوق تتسلقه بسرعة وتهبط بجنون، غير آبهة للقطع الطولى بفستانها الذى أحدثه المسمار الحاد، ولا للزعيق القوى الذى يرسله البهلول للصديق ... وحتى عندما تهور البهلول ونال بعصاه أنامل صديقها الذى صرخ صرخة أشبه بكلب يعوى، لم تلتفت ...

فقط سارت وشجيرات خضراء عن يمينها، وبحر أزرق عن يسارها، ورأس لا يتوقف يدفع لها فى كل لحظة بصور لأشخاص قد تعرفهم، وإن كانت الآن لا تميزهم ... قد

يكون بينهم الأب الهرم ... أو الأخ الذى أقسم بالدم ... وربما الزوج برغباته الشاذة ... أو الجيران ... أو متلصصو القطار ... أو الذين حصلوا عليها من المحطة ... أو الذين دفعوا أول أجر ... أصبحت الآن لا تهتم ... حتى بالصديق الذى مازال يجرى أمام الرجل المعتوه وفى كل لحظة يلتفت مشيرا لها بما معناه أن تنتظر ... كل الأمور الآن ما عادت تهم ... حتى الجرح الذى لا يكاد يبين خلال مزق فستانها ويتسرب منه خيط دم ... لا يهم ... كان هناك طريق قد بدأ يتكشف أمامها وبمقدورها وحدها أن تتمه إلى الأبد .

(5)

النصل

وحين برك فوق ظهرى ومس بنصله البارد جلد الرقبة ...
أيقنت تماما أنى هالك ... ومن خلال عفارة التراب التى
ملأت وجهى ومن بين عتامة الرؤية... كان بعضهم يفر ...
وآخرون مرتعبين وثمة نساء تصحن ... ومع ارتفاع النصل
الحاد فى مواجهتهم كان الجمع الكثيف قد بدأ يتبدد ...
وكنت أحس بقطرات الدم الساخن قد بدأت تنسل منى ...
حتى أطلت بوجهها الفاتن ... وسبقها صوتها إليه ...
ففرت من يده السكين ... وانزاح من على كاهلى متكوما
كقط مذعور ... رغم ذلك لم أنتهز الفرصة .. لبدت كامناً
فى الأرض ... أرقب بعين مترقبة وفضول كبير ركلاتها
القوية لجسده ... وأتتبع بلهفة طفل يطارد بالونه الكبير
بصقاتها عليه ... ولما نفضت أتربتى وتأبطتنى ... وعندما

ابتعدنا بعيدا كان يحيرنى سؤال : اذا لم يوجه نصله إليها ؟ وهل لا يزال يرقد فى قلبه الحنين؟.... وكانت الأسئلة تكبر شيئا فشيئا ...

وهى تربت شعرى وتعتذر ... وتمنينى بليال جميلة قادمة ... بينما كانت أذناى لا تزالان تلتقطان صوت خطواته المهرولة وهو يعدو خلفنا ... وعيناى لا تزالان تدفعان إلىّ بصور لنصال لامعة مشرعة فى ظهرنا ... وفى كل لحظة تنمو الأصوات وتتجسم الصور ... لكننى كنت على يقين هذه المرة بأن النصل لن يكون فى ظهرى ... كنت على يقين ...

(6)

الفاصل

جاءنى اليوم أخيرا، راكبا فيله المجنح تتبعه أسراب النورس الضخمة التى تحمل طاووس الحكمة على هودج أبيض، وبينما كان الغيم يتشكل حوله دوائر ... دوائر ... كانت أشعة الشمس تنساب على جسده الشفاف فيخيل إلى الناظر أن هناك جبلا من ذهب تحيطه تلال من المرجان الأسود ملتصقا بقبة السماء الفضية.

هزتنى رؤيته هذه المرة نظرا للغياب الطويل بيننا، فقد كانت آخر مرة زارنى فيها منذ عشر سنوات، يومها كان قد تخفى فى هيئة ديناصور ضخم أخضر اللون ... عيناه بقعتان من الضوء الأحمر تحاصران لؤلؤتين فى حجم الحمص، وكان قد أخرج ذيله الضخم من البلكون بعد أن أجلسته على أعظم كرسى لدى حتى وصل ذيله إلى الشارع المسمى باسمه بيتا

فأوقف المرور . . .

انزعج الشرطى العجوز وظل يصرخ ويرفع يديه يتوعدنى وهو ينظر إلى نظرات شرسة ، ولما كان هذا الضيف عزيزا على قلبى . . . حبيبا إلى ، وجدت أنه من غير اللائق أن أهمس فى أذنه لينحى ديله جانبا عن الطريق ، وكان من نتيجة ذلك أن غامرت بمخاصمة شرطينا العجوز الأبله الذى ظن لبلادة تفكيره أنه يستطيع أن ينتصر على ضيفى ، فمضى إلى أقرب هاتف فى الطريق واتصل بمراكز الإطفاء والشرطة التى تمتلئ بها بلدتنا .

قدمت إلى ضيفى مشروبه المفضل ، وجلست أقهقه وأنا أنظر إلى الشرطى البائس وهو يصعد سلم عربة الإطفاء حتى وصل إلى سطح ذيل ضيفى العزيز ، وكان قد استأجر منشارا كهربائيا كبيرا مضى يحاول أن يقطع به الذيل ، لكن محاولته باءت بالفشل وانكسر المنشار لضخامة وقوة الذيل ، ولما رفع الشرطى رأسه إلى ووجدنى أنظر إليه شماتة نزل مسرعا من فوق السلم وجسمه منتفخ من الغضب واقترب من شخص تزينه الأشرطة الحمراء والخضراء كان يراقب الموقف بإصرار ثم دارت محادثة قصيرة بينهما ، لاحظت خلالها أن ذلك الشخص المزين بتلك الأشرطة يكاد ينشق من الغيظ ، يرغى ويزبد ويشير ذات اليمين وذات اليسار .

لم تمض وهلة من الزمن حتى أتت قوافل الدبابات

الضخمة وأخذت مواقعها فى الميدان فخمنت لحظتها من المنتصر ، ولأننى أعرف قوة ضيفى جيدا تركت البلكون وجلست على كرسى أمامه أبادله الحديث .

أشياء كثيرى تدفعنى إلى احترامه : أدبه . . . علمه . . . إلمامه بكل شىء وكذلك أمور كثيرة تجعلنى أرتبط به وأدور فى فلكه ، اختلست نظرة إلى ضيفى فوجدته يتململ فى كرسيه ويهز ذيله الضخم يمينا ويسارا فيصدر عن هذا الاهتزاز صوت ناشز مصحوب بأتربة وغبار وهدير ضخم كأصوات القنابل يطن فى أذنى ، وخشيت أن يظن أن بيتنا مملوء بالحشرات التى تقرص ذيله لكن لم ألبث أن حمدت الله لأن ذيله كان فى الشارع ، على ما يبدو أن القرصات كانت لاذعة لأنه لم تمض لحظة حتى نهض ضيفى مستأذنا فودعته على أمل لقاء قريب .

مرت سنوات عدة على هذا اللقاء واجتاحت لذلك الفرحة اثنين . . الشرطى الأبله وزوجتى الغبية . . .

كانت زوجتى تمقت ضيفى لسبب لا أدريه ولا أظننى على علم به ، كان يوجد بينهما شىء من عدم الاستلطاف والنفور ، فحينما كان يأتى لزيارتى كانت زوجتى تجلس معنا ولا تنبس بكلمة ، أما عيناها فكانتا تبدوان حائرتين وهى تستمع إلينا ثم تشرد قليلا وتعود إلى النظر إلينا أولا بشىء من الفضول ثم بشىء من الدهشة ، وأخيرا يهزها القلق هزا

وتضم كفيها إلى رأسها وتظل هكذا إلى أن يستأذن ضيفى ، وأكثر من مرة حاولت أن أفهم منها سبب هذا الجفاء بينهما فكانت تجيبنى بهمهمات غامضة .

لعب برأسى الفأر يوما ، فاستشرت ضيفى العزيز عندما كان فى منزلى آخر مرة عن سر هذا الانطواء الذى يظلل زوجتى أثناء حضوره ، وكان الباعث الرئيس لأن أستشيره أنه كان يدرس فى مرحلة من عمره علم «الانطواء المنبعث من ذلك النتوء المسمى بالمخ» فى جامعة الدرافيل ذات البعد الثالث فى التفكير ، أما جامعة الدرافيل فقد كانت ترقد فى حضن جبل يسمى المعرفة ، وهذا الجبل ذو قمم مغناطيسية تلتقط المعرفة الزائدة عن حدود إمكان البشر وتضعها فى سجلات بأرقام سرية وتتولى تدريسها للأصفياء من البشر ، وكما قدرت فعلا . . . أفادنى صديقى العزيز وقال لى فى صوت خفيض حتى لا تسمعه زوجتى :

– إنها مصابة بجمود فكرى سيؤدى إلى جنون مطبق إن لم نسبق الزمن ونعالجها .

ولما سألته عن كيفية العلاج . . أجابنى : بأنه سوف يأتى إلى فى المرة القادمة بطاووس الحكمة الذى سيشفى زوجتى وينتزع منها البلادة ليحل محلها الحكمة . وأضاف فى سرية تامة : أنها ستنضم إلينا حين نهبط جبل الحكماء المجاور لجبل المعرفة وستكون قبل ذلك قد شفيت .

غمرنى سرور عظيم لما جاءنى اليوم خاصة أن الغياب هذه المرة قد طال كثيرا لكن رؤيته اليوم وهو يحمل طاووس الحكمة أثلجت قلبى وزادته اطمئنانا على زوجتى الطيبة التى ما إن علمت بوجود ضيفى حتى انهمرت فى البكاء (هكذا حال الدنيا ، هؤلاء الأغبياء لا ينظرون إلا إلى ما بين أقدامهم وليست لديهم أية مرونة فى التفكير تجعلهم يدركون أين الخطأ وأين الصواب . . . إنها اليوم تبكى ولكننى على استعداد أن أقسم غدا بأنها بعد أن تهجر عقلها الحالى ستعرف كم كانت خاطئة)

فى بادئ الأمر اشمئز ضيفى من بكاء زوجتى وأحسست به ضيقا لكننى ابتسمت له ابتسامة رقيقة حتى لا يؤثر فيه سوء الاستقبال ، وكما كان كريما معى دائما . . . استعاد ابتسامته الخلابة ثم أشار بيده الضخمة الى النورس وأمرها بأن تضع الهودج جانبا وصفر صفيرا عذبا خرج على إثره طاووس الحكمة يتهادى على أرضية الغرفة ، لكن الأمر الذى أدهشنى أنه بمجرد خروج الطاووس اخضر لون ضيفى وظهر على وجهه الغضب ثم ارتعشت أصابعه وقال وصوته يملؤه الخجل :

– فى الأمر خطأ . . . فى الأمر خطأ .

وامتطى فيله وعاد مسرعا وبينما هو فى طريقه أرسل لى إشارة بتوارد الخواطر ينبئنى فيها أن الدب القطبى المكلف

بإحضار طاووس الحكمة أخطأ ولأول مرة منذ خمسة وعشرين قرنا ، أحضر طاووسا أنثى ... ثم أتم ضيفى حديثه وطمأننى بأنه ذهب ليصحح هذه الغلطة وسوف يعود حالا بالطاووس الذكر كما أضاف وصوته كله ضيق :

– سوف أعاقب الدب القطبى أشد العقاب ولن يشفع له أبدا أن هذا أول خطأ له .

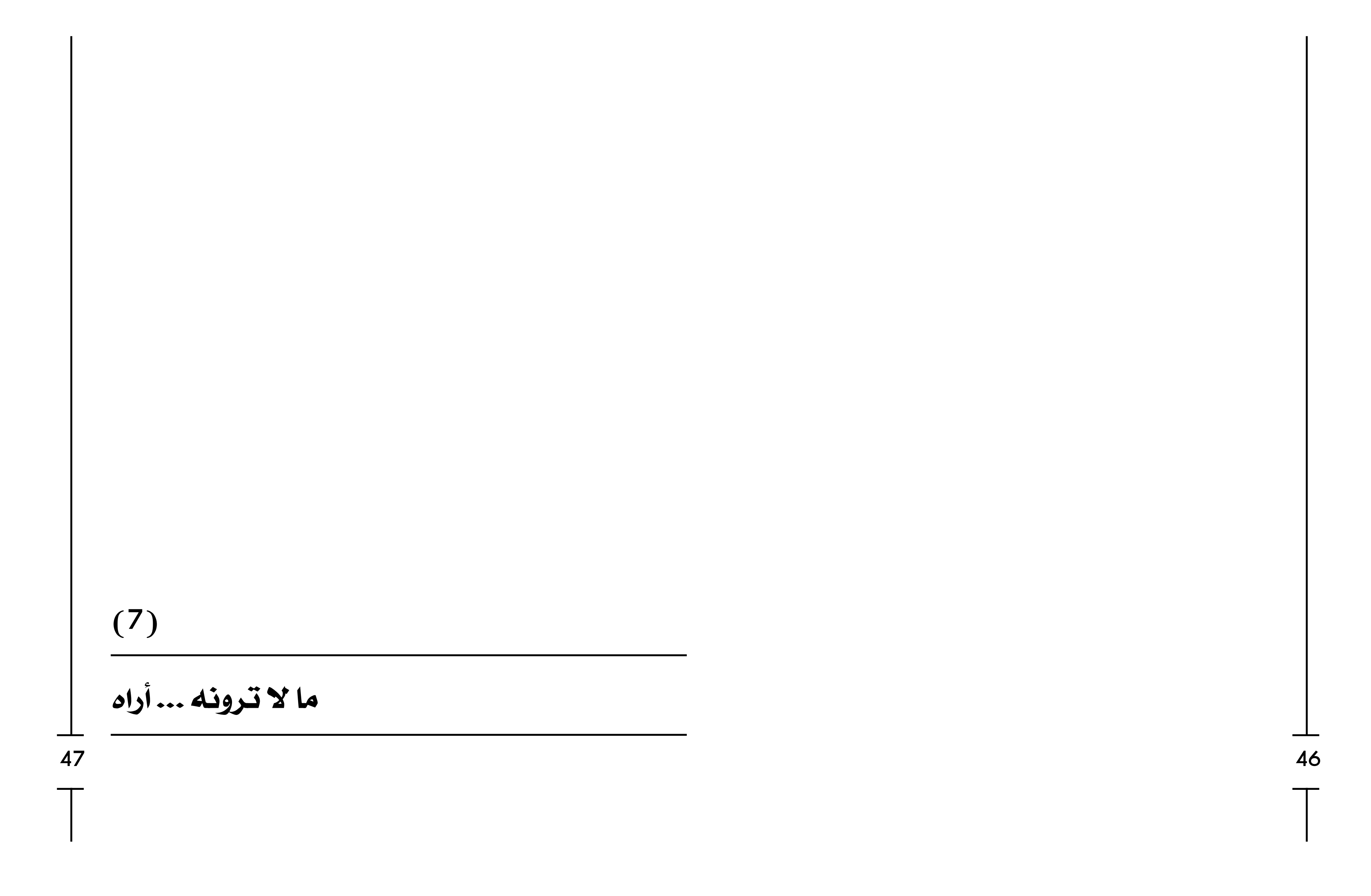
أمطرتنى السماء بوابل من الخجل والشعور بالذنب أمام زوجتى التى كانت لا تزال تبكى وتنتحب وتتمخط فى آن واحد ... حقيقة ليس الخطأ منى ولكن لابد أن أتحمل نتيجته بالكامل ولن أهدأ حتى يأتى ضيفى العزيز بالطاووس المقصود ، نهضت زوجتى تهرول لتفتح باب شقتنا للطارق ففوجئت بهذا العدد الغريب من الناس وأدهشنى ذلك فمنذ زمن بعيد امتنع الأقارب والضيوف عن زيارتنا نظرا لظروف مرض زوجتى العقلى .

حالة غريبة تنتاب بيتنا : صراخ ... بكاء ... قلق ... دهشة ... ذهول ... انهيار ، يقترب منى الآن أكبرهم سنا وأعرضهم منكبا وهو ينظر إلىّ نظره غبية ويشير إلى شخص آخر بإشارة مبهمة ، وسرعان ما يهرول هذا الشخص ويعود وفى يده معطف أبيض يقدمه لذى المنكب العريض الذى يكبلنى بيديه ويلبسنى إياه رغم دهشتى ورغم ما أبديه من اعتراض ، أحاول أن أصرخ فتختنق فى حنجرتى الكلمات ،

أحاول أن أفلت يديه فتعجزنى يداى المشلولتان من أثر قبضته القوية ومن وسط الهدير الثائر أحاول أن أقول لزوجتى : لا تنزعجى سيأتى صديقى إليك بطاووس الحكمة حالا ...

لكن كلماتى الواهنة تصطدم بأجساد القوم الذين يكونون فاصلا بينى وبينها ويمزقنى التساؤل : إلى أين سيقودنى هؤلاء الأغبياء ؟

فيحتوينى الفاصل وأغرق فى عرق أجسادهم .



(7)
ما لا ترونه ... أراه
47
46

اقتحمت «إيفون» غرفة مكتبى ولملمت بأصابعها النحيلة الأوراق المتناثرة أمامى ... وأغلقت الآلة الحاسبة وأومأت إلى ساعة الحائط بابتسامة فاتنة ... ثم أطفأت سيجارتى وهى تفتعل الغضب :

- تانى مش هتبطل دخان يا محمد

نهضت مسرعا لأرتدى جاكت البدلة ... وبذلت جهدا كى ألاحقها حتى وجدتها على الرصيف تتفرس فى السيارات الواقفة أمام المبنى ... ولمحنى منادى السيارات فأشار إلى من بعيد وهو يطبق يده لأعلى كثمرة الكمثرى بما معناه أن أنتظر قليلا ...

سألتها : هل ستقول كلاما مفيدا هذه المرة ؟ أم ستجعلنى أتثاءب كعهدى أمام المحاضرين خلال الندوات ...

اتسعت ابتسامتها لتحتوى الكون بأكمله وهمست :

– تتاوب ... طب جرب كده وأنا أسيب الندوة واطبق فى زمارة رقبتك

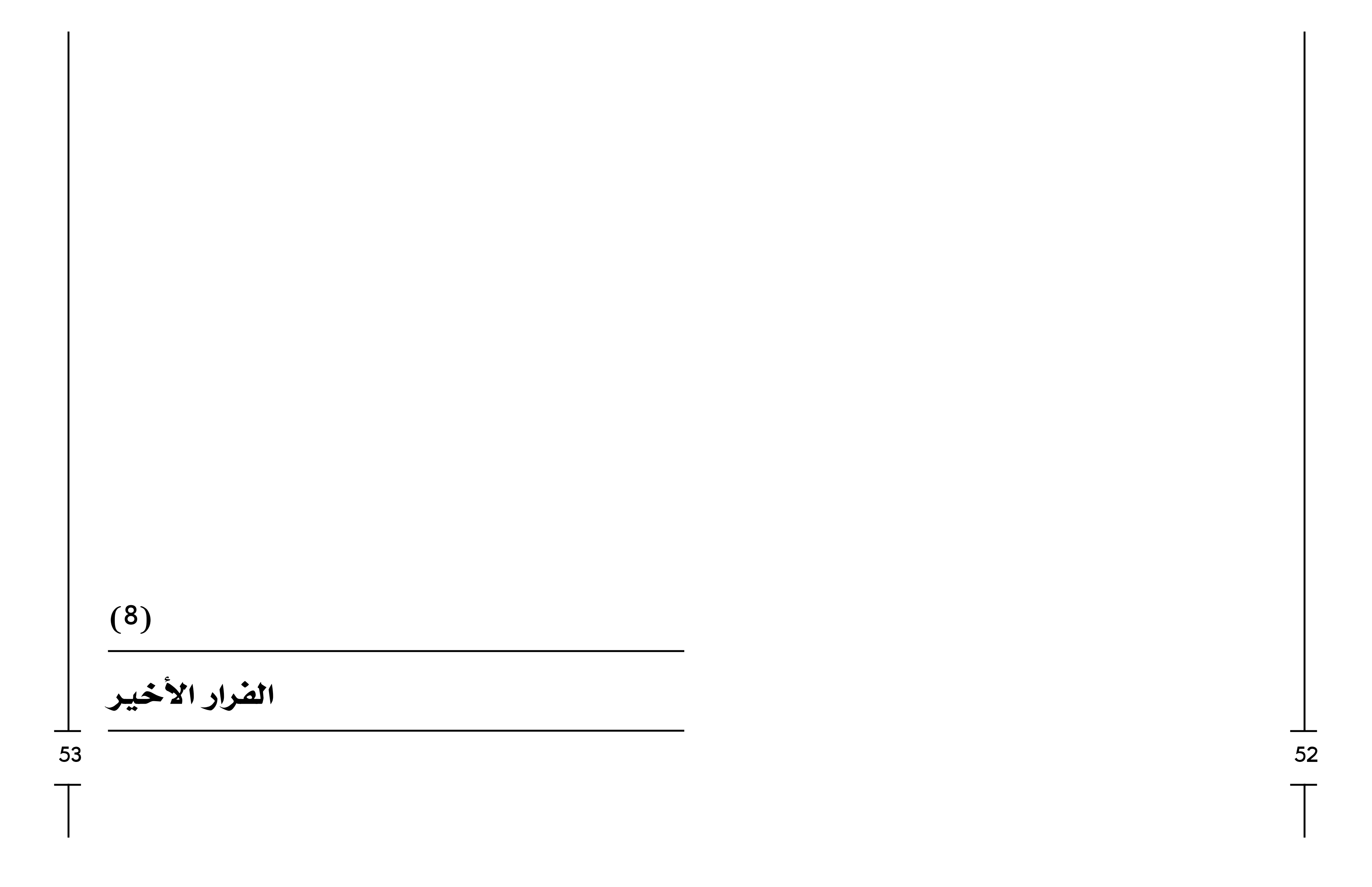
جاء المنادى بالسيارة وهو يقودها كالبهلوان وبابها الأمامى مفتوح... أسرعنا للدخول حتى لا نعطل الطريق قال لى المنادى وهو يعطينى المفاتيح بابتسامة لزجة وخجل مصنوع

– معلش يا باشا ... اصل انا ملقيتش مكان للركنة غير ولا مؤاخذة جنب الكنيسة ... متاخذنيش.

قدت السيارة وقد زادنى ارتباك المرور توترا ... ورغم كل إزعاجات الطريق من صافرات وصياح وجلبة المواتير كانت حركة أصابعها المتوترة على الأوراق التى بيديها أعلى صوتا منها جميعا ... اختلست نظرة جانبية إليها كانت كبالون فرغ منه الهواء تماما وانطبق على نفسه وكان حزام الأمان يبدو أكثر عرضا من مساحة صدرها ...

وفى الندوة بدا صوتها يجاهد للخروج والكلمات تنسل من فمها مخنوقة ومكتومة وتصاعدت أصوات ملأت القاعة ... الصوت .. الصوت ... وبدأ صوتها يرتفع قليلا وبالكاد سمعت كلمات عن الفساد البيئى وأول وثانى أكسيد الكربون وثقب الأوزون وأرضنا الجميلة ووطننا الرائع ...!

ثم سمعت رجع الصدى لصوت تصفيق فاتر ... وفى طريق العودة أغلقت زجاج السيارة كله أتوماتيكيا وشغلت المكيف ... وظللت أختلس النظر عند كل توقف إلى النوافذ والأبواب خوفا من أن تتسلل نسمة هواء تجذبها من السيارة إلى الأفق ... وجثم على صدرى شعور طاغ بأنها ما عادت تنتمى إلى هذا العالم.



(8)

الفرار الأخير

كل خطوة بقطرة ماء فى حجم القرش تسقط على صدرك
يا صابحة وتتجمع القروش لتبرز من خلف الجلباب الأسود
استدارة الصدر، وصدرك يغرى يا صابحة بالجنس،
والصفيحة الملساء المملوة بالماء تكاد تدك رأسك الجميل
والمسافة طويلة يا صابحة وتملين والحجارة كثيرة وتصعدين
وتهبطين وتنحنين بانحناء الطريق المليء بالصبايا والرجال
الذين تتكسر نظراتهم على حلمة ثديك وتحاصرك رغباتهم
الدفينة وتذكرك بالرغبة التى دوما فى عينيه وتسللات يديه
لتحتك بيديك وابتسامته القبيحة التى تكاد تبتلعك ورائحة
الدخان الذى يخرج من فم كالقبر وأنت تفرين ولا فائدة...
قدرك ومصيرك وتفرين ولا فائدة ...

والطريق طويل يا صابحة على أمك المهدودة وإخوتك الصغار ... من الزيتون إلى أقاصى الهرم مشوار طويل ... ثقيل ... وهى لا تجىء إلا عند النقود ... علمتك الاختلاس من المصروف وتعودت على الاستيلاء على هذه النقود ثم تعود بالوجه الكئيب وأنت وحيدة فى بيت منزو ... قمىء ... لا أصدقاء ... لا أحباب .. لكن جيران .. لا يوجدون إلا ساعة المساء ... لا حس ولا خبر ... يقفلون الباب على شققهم وأسرارهم وأحزانهم ولا يبالون وحتى عندما يلتقون بك فى الصعود أو النزول تخرج التحية كالإهانة بقرف وسخرية ... فهل لأنهن موظفات ... مدرسات وسكرتيرات يتعالين ؟. أم لأنهن ما بين العمل وبيوت الحموات حيث يتركن أطفالهن يعانين !. الله وحده هو العليم.

الشقة مشتركة ... أربع غرف وصالة وحمام ومطبخ صغير ... غرفتان للأسطى يحيى زوجك، وغرفتان للأسطى جابر وزوجته ... تعجلت أمك الزفاف ما إن لحت الليمونتين على صدرك حتى ألقت بك إلى أحضان يحيى ... وما العيب به ؟ سائق عربة نقل ... كسيب وابن حلال ... شارى جمالك بشبابه وماله ... وطالت الخطبة وظهر الكسيب على حقيقته ... لا يملك أبيض ولا أسود، أما أمك فأصرت على التخلص منك، عاندت الحقيقة التى ظهرت ووقفت مع

يحيى ضدك وبررت موقفه: «شاب والشباب يحب يصرف وانت بعد الزواج تحافظى عليه وعلى فلوسه» وصدقت أمك كلام يحيى عن ربحه اليومى وطمعت فيه أكثر وهمست فى أذنك ... «تبقى تحوشى فى اليوم جنيه ولا اتنين من المصروف» .

وامتدت الخطبة حتى تهامس الناس وصار الهمس صراخا ... وحاول يحيى البحث عن شقة وفشل ونقب عن رجل طيب لا يأخذ خلوا ولا مقدما فعاد بخفى حنين وأخيرا جعل الله له مخرجا ... ارتضى صديقه جابر أن يسكنه معه فى شقته إلى أن ينتهى من بناء بيته فيتنازل ليحيى عن الشقة نهائيا ... وفرح يحيى كثيرا ولم يهدأ حتى نام فى حضنك فى خلال أسبوع وتمتع بشبابك وأضاف إلى قائمة مكيفاته مكيفا جديدا وعرفت أخيرا يا صابحة أن زوجك تباع وأن الأسطى هو جابر، وأن مسألة القيادة أمل يداعب يحيى طويلا ويتمنى أن يحققه، بعد فوات الأوان عرفت يا صابحة أن يحيى مجرد تباع للأسطى جابر قدرك ومصيرك ..

سرينة السيارات تدوى فى أذنيك يا صابحة وتزلزلك ... تذكرك بهما ... زوجك يحيى وصديقه جابر المعلم الذى تشرّب المهنة واستنشقها منذ أن كان صبيا فى العاشرة يبيع الجرائد وأوراق اليانصيب للسائقين بجوار مصنع الحديد والصلب إلى أن أصبح معلما يملك عربة ومالا وبيتا لم

يكتمل البنيان ... وقصة لقائه بيحيى سمعتيها منهما ألف مرة ...

كان يحيى واقفا بعرض الشارع يشير للعربات بأن توصله إلى أقرب محطة أتوبيس وجاء القدر بجابر فى هذه اللحظة ولما كانت العربة فارغة من الحمولة ... أركبه جابر معه ... وتداولا الحديث أثناء الطريق ... وعرف جابر سوء أحوال يحيى المالية ... فالعائد إليه من المصنع قليل ومطالب الحياة كثيرة وكان فى تلك الفترة فى أشد الحاجة إلى تباع يعاونه فى ربط الحمولة ورفعها وتنظيف العربة وإحضار المأكولات ... لعبت برأسه الفكرة ... تردد لحظة ... ثم صارح يحيى بحاجته إلى معاون ... تباع .. خرجت من بين شفتى يحيى كلمتان بطيئتان «أنا أشتغل خدام».. فسر له جابر الأمر جيدا ... «خدام إيه يا عبيط ... معاون لى .. وبكرة أعلمك السواقة وتشوفلك عربية تركبها ونبقى زمايل» ...

وبدأ الكلام يدخل دماغ يحيى شيئا فشيئا واعتدل دماغه تماما عندما سمع أن الأجر سيكون ثلاثة جنيهات يوميا... بخلاف الهبات التى سيحصل عليها من العملاء ... وفى نهاية الشهر وقف يحيى أمام موظف الخزينة بالمصنع وتناول راتبه وعندما أخذ الرجل إصبع إبهامه ليبصم أمام الخانة التى بها مرتبه ضغط ضغطا شديدا على الورقة وخرج من المصنع حاملا مرتبه وشهادة الميلاد ولم يعد بعدها إلى عمله قط...

أعجب جابر بطاعة يحيى وحسن تصرفه وتحولت العلاقة إلى زمالة وصداقة ووفى جابر بوعده وعلمه القيادة واستخرج له الرخصة وبقى ليحيى فقط شراء العربة ويحيى لم ينس هذا الجميل لجابر قط...

ما الذى جرى لعقلك يا صابحة ؟ ...

تجاوزت الدكة الحجرية التى تستريحين عليها كل يوم ثم تواصلين المسير ... الماء نفس الماء والصفيحة نفس الصفيحة والمشوار هو المشوار هو المشوار ولأول مرة تخطئين ... اللهم اجعله خيرا ... بوادر شر تحوم ... أرجعى خمس خطوات واجلسى فالطريق مازال طويلا...

اعترضت أمك على كل شىء ... المهر والشبكة وطول فترة الخطوبة ودلعك والبعوض الذى يملأ الحى ولم تعترض على الحشيش والبرشام والسكن المشترك وحتى عندما فاض بك الكيل وتجسم أمامك الخوف، وصرخت فى وجهها معترضة على العيش معه ... هزئت بك وسخرت منك: «بتدلعى يا بت ... جوزك قد الدنيا والحاجات ديه كل السواقين بتتعطاها علشان تفوق وتصحصح فى الطريق». حتى أمك تكذب على نفسها وتقول سواق ... ولا تفهمك ولن تفهمك ... احتمال عندما يقتلك يحيى أو عندما تنتحرين باختيارك ... أن تفهمك ... احتمال ؟ ... كل السائقين يتعاطون المكيفات يجوز... لكن هل كل السائقين

يسكنون فى سكن مشترك ويتركون الذئب مع الحمل ؟ . . .
لم تفهمك أمك - أم العريف - ولأن المال فى عينيها هدف
فلن تفهمك . . .

يحيى غيور جدا . . . يخشى من نظرات الناس ويثق
بجابر ثقة عمياء . . . منعك من لبس البنطلون وألبسك الملس
الأسود . . . غيور جدا . . . حتى عندما تفتق ثوبك من تحت
الإبط لكثرة رفعك الصفيحة وبان خلفه قميص نومك
الأحمر . . . لمحك يحيى وأنساك كفه لحظتها أنك إنسانة . . .
آدمية . . . وفى الليل وهو يصالحك . . . لم ينس أن يلقى
إليك بسيل أوامره . . . غسل ونشر الملابس الداخلية داخل
الغرفة . . . الكلام بصوت منخفض . . . . تنفيذ أوامر نوارة
زوجة جابر فيكفى أنها وافقت على أن نشاركها الشقة . . .
ونوارة شرسة جدا وغبية . . . ولا تستريح من الخناق إلا
لتستعد لخناقة أكبر وجابر يبادلها الغباء بالجنون . . . ويظلان
يتضاربان حتى يسيل منها الدم وأنت ويحيى الضحية . . .
أول من يفض النزاع وأول من يصالحهما وأول من تتلقيان
الإهانة . . . البيت كله سبب لك الجنون . . . لا راحة ولا أمان
. . . تروحين وتجئين بالغرفة يا صابحة . . . فالبيت له حرمة
وقميص النوم لا يتعدى باب الغرفة المقفول . . . محال أن
تخرجى به من الصالة . . فالحائط له عيون . . . والباب له
عيون . . . وجابر له عيون وأيدٍ . . . ويتحرق شوقا لأكل

الثمرة الناضجة وكل يوم يمر يدفعه لأكلك . . . وأنت لا حول
لك ولا قوة حتى الدفاع عن نفسك لا تملكينه . . . أمك فى
واد . . . ويحيى فى ثقته ونوارة فى خناقاتها وثوراتها . . . أما
جابر فهو الوحيد المتيقظ لك . . . المنتبه لجمالك . . . المنتظر
لوقوعك . . . الراصد لانهيارك . . .

حتى نوارة . . . الظل الذى كنت تحتمين به سقط أخيرا
. . . تركت البيت لجابر وذهبت لأهلها . . . المسكينة كانت
تنتظر كعادتها أن يجىء جابر ليصالحها . . . فتمانع . . .
فيلح . . . فتذهب بدلال . . . لكن هذه المرة لم يذهب جابر
وأرسل مندوبا عنه . . . ورقة طلاق . . دهشتى طبعا . . .
وسألتى يحيى : لماذا ؟ وأجابك بقرف : «مجنونة بتعكر عليه
حياته . . . الواحد المفروض يرجع البيت يستريح . . . مش
يلاقى واحدة تفجر نافوخه» . . .

الآن فقط يا يحيى أدركت أن نوارة مجنونة . . .

الساعة الثانية والنصف . . . ما الذى جعل هذا الأبله ينظر
إليك هكذا ؟ . . . قال لك الساعة لماذا هذه النظرة . . .؟ هل
اللحظة التى أخبرك فيها بالساعة عطلته عن مواعيده ؟ . . .
لا . . . بل لأنك جميلة . . . ألف لعنة على هذا الجمال الذى
سيقتلك ويجعلك طعاما للدود . . . انهضى وواصلى المسيرة
وإذا استطعت أن تقولى لكل من ينظر إليك إنك تحملين
وجها لا تملكينه فقولى . . .

عجيبة هذه الحياة وأعجب منها الذين يسكنونها ... جابر يريدك كثيرا ومستعد لدفع كافة أمواله من أجل أن تكونى يوما أسفل حوضه ... وفى سبيلك يبذل نقوده ... حشيشه ... جنونه ... ويحيى، الذى بحكم الدين والقانون والورقة التى وقعها شاهدان، زوجك ... لا يراك .. لا يشم عبيرك ... لا يلاحظ عيونك ... وحتى حين تهبط عليه أسباب الرضاء ويبقى فى شوق لليالى المساء ... بعد قضاء حاجته .. يصرخ فى وجهك: عشائى ... أين العشاء؟ وويل لك ... ألف ويل لو كانت محتويات العشاء لا تتفق مع ما تخيله وهو يضاجعك ويلقى فى رحمك بما يزيد مواجعك...

اشترى جابر عربة ... ودفع فيها مبلغا كبيرا ... حتى أنت يا صابحة ذهلت أن يدفع جابر كل هذا المبلغ ... أما العربة القديمة فتركها ليحيى يقودها لحسابه ... وقامت بينهما شبه شركة ... وكل يوم واحد بطريق .. أحيانا تبالغين يا صابحة فى الأمور وتضخمين الأحداث .. اعترفى الآن بأن البيت كئيب جدا بعد طلاق نوارة وأن الوحدة تقتلك حينما يكون يحيى بالعمل وأن جابر بعد طلاقه لا يوجد كثيرا بالقاهرة ... عاد إلى حياته قبل الزواج .. أصبح ينتقى النقلات البعيدة التى خارج القاهرة والتى كان يرفضها لأنه متزوج ... فهذه النقلات الخارجية أربح كثيرا من النقل

الداخلى وأصبح يتغيب بالأيام ... نسى يا صابحة ... لا ... بل أصبح أكثر إصرارا على النيل منك ... فعندما يعود يبتسم لك ... يضغط على يدك ... وأمام يحيى يقدم هداياه ... منديلا مطرزا من المحلة ... حب العزيز من السيد البدوى ... حلوى ومشبك من دمياط ... ويحيى سعيد بلقاء صديقه وحبيبه ويبتسم ويهمس لك فى السرير: جابر ابن حلال ... ربنا يقدرنى على رد جمايله ...

«فعلا يا يحيى ... ربنا يقدرك على رد جمايله خاصة الجميل الأخير الذى يتمنى أن يقدمه لك ... أن يغتصب زوجتك ... يا أبله .. يا من تملك عقلا أسوأ من عربة النقل القديمة التى تركبها وأسوأ كذلك من السرير الذى تنام عليه والذى كانت تنام عليه المرحومة أمك»... ذاك الذى يهتز عند أقل حركة فيسبب جنونك يا صابحة ... عندما تشكين أن جابر يتنصت عليكما ... وفى الصباح تكادين تموتين خجلا وأنت تشاهدين انفراجة أسنانه وهو يلمح يحيى يتحمم عند الفجر وخبث عينيه وهما ترقبانك فى الذهاب والمجىء الصباحيين...

ويحيى عنيد يصر ألا يغير سرير المرحومة، ورأسه أصلب من الحديد ... وفى قعدات الكيف الكثيرة .. يحكى لجابر الكثير ... وجابر يعرف كيف يستفيد بالقليل فما بالك بالكثير ... كلامه كله معانى ومعانى ... تجعل ركبتيك

تتخبطان ورعشة خوف تتملكك، وعرق غزير يهبط عليك ولا متعة فى هذا البيت الموحش ... لا راحة ولا أمل ولا حتى ترقب سراب ... وبيت جابر الجديد لن ينتهى أبدا ... بما أن يحيى الغيور يبتسم له فى اللقاء والوداع ويتمنى أن يرد جمايله ... وبما أن زوجة يحيى تعيش فى نخاع جابر الذى يتشوق للقاء الحرام ...

لا يلعب بك الأمل يا صابحة فقد قالها لك يحيى قبل ذلك وعرفتها وتأكدتى جيدا من فتحة عينيه الواسعتين ... ومن كلمات دهشة خرجت من فمه «جابر قال إنه سيتزوج قريبا وبيته الجديد أمامه الكثير» وأنهى يحيى حديثه بقرف ... ولم تدفعك الجرأة أن تقولى السبب والرعب متمكن منك ...

النهار .. هو النهار ... بشمسه الحارقة وطريقه الطويل وحمولته الثقيلة وذبابه السخيف ولأننا بالصيف ... الليل عندنا متعة .. أقصد للذين يمتلكونه ... الليل عندهم متعة ... أما عندك فهو اجتماع ثلاثة أشخاص كلهم فى واد حول جهاز سخيف ينظرون إلى شاشته المربعة، وبالساعات يتكلمون ... يحيى تستهويه الأفلام الأجنبية والمسدسات الفضية ويظل يشوح بيديه عند كل طلقة صائبة فيقلب الجوزة ويبعثر الفحم المشتعل تاركا ثقوبا على ملابسه أكثر من الثقوب التى بالمصفاة التى يهشم بها الفحم ... وجابر

متحفز لأقل سنتيمتر يظهر من جسد أى ممثلة فى أى سن وعندما يرى هدفه تخرج عيناه جاذبة معها رأسه ... وفمه ينفتح على آخره ثم يحول عينيه بكل الخبث إليك محاولا أن يقارن بين الجزء الذى ظهر من الممثلة ونفس الجزء الذى بجسدك ويغلبك عليها رغم القماش الأسود الذى يخفيك فأنت الأقرب والأسهل والأضمن ثم من بين أسنانه الصفراء يلقى بتعبير أى تعبير قذر يتناسب مع جلال الموقف الذى يراه والعجيب أن يحيى يكون فى تلك الأثناء يشد من «لاى» الجوزة وفى كل مرة يلقى جابر بكلماته اللولبية يكون يحيى فى فم الجوزة ولا ينتبه لأى كلمة يقولها جابر ... أى كلمة ... وكل كلام جابر موزون ... موزون حتى فى الليالى الحلوة ... الحلوة جدا بعد انتصاف الليل ... فى تلك اللحظة التى تتدلل فيها المرأة وتصل إلى قمة التدلل ... وتلك اللحظة التى يجيب فيها الرجل أى رغبة لزوجته ... أى رغبة ... حتى فى تلك اللحظة كنت يا يحيى ترفض أى نقاش حول جابر وتجد المبرر لكل شىء ... «لابد أن يشاهد معنا التليفزيون ... لأنه وحيد هذه الأيام ... لابد أن تشعلى له الفحم وتخدمى على القعدة ... حتى لا يحس بأننا لا نستلطفه وهو صاحب فضل علينا» ... ثم يلعب بك يا يحيى الخدر وأنت لا تزال صبيا وجابر هو المعلم ... وتسقط يا يحيى بعد خمس أو ست أنفاس ورأس جابر يهتز فقط ...

وتضيع يا يحيى فى دنيا غير الدنيا ويستيقظ جابر لرغبته ... يهمس لك بالمباح وغير المباح ولا ينفع معه الزجر ولا النهى ولا الكلام عن الصداقة والأخوة ولا التهديد ولا الوعيد ... ويظل يلقى بنكات لا يضحك لها أحد وحتى إن كانت مضحكة تبكيك يا صابحة ... تبكيك ...، ويندمج فى الضحك ويخبط بإحدى يديه على فخذك ... على فخذك ويحيى نائم بين دخانه وأوهامه ... لا توقظه الضحكة ... لا توقظه ... ولا يحس أبدا بلمسة فخذك ... طبعا فأنت يا يحيى لا تملكه ... لا تملكه ... وعندما تستيقظ يا يحيى وتفوق ... يلعب معك جابر نفس اللعبة وجابر قط وصابحة فأر ... وأنت آخر من يعلم ... جابر معلم ... وتاريخ قديم بالسوق ومعرفة بكل طوبة بالطريق ويكسب أكثر منك مائة مرة ... أمر واقع ومعروف وتعرفه أنت يا يحيى أكثر من الجميع ... وإذا استطعت يا يحيى أن تدخل إلى البيت بقطعة فى حجم البوستة من الحشيش ... دخل جابر بقطعة فى حجم الصابونة وأنت ككل إنسان بهذا الكون العريض تغير ... مهما كنت تحب الشخص تغير من اتساع رزقه وتضخم جيبه ... وجابر لماح .. اقتنص من لمعة عينيك ... طعما فى أن تصبح صاحب القعدة وصاحب الحشيش فأغراك، وظل يغريك ... ولم ينه القعدة حتى كان قد أقنعك وأصبحت فى يده كالخاتم، أما صابحة فقد صرخت فى

وجهك ولطمت خديها عندما علمت بخبث الفكرة ... وبرأسك الحديدى الذى يشبه السرير الذى تنام عليه صممت على الفكرة ولم يتدخل جابر فقد زرع البذرة وكان يعلم أن رأسك الغبى سيحتويها وينميها ويقف بجوارها وكذلك وبالفداحة الأمر !... سيظن أنها من بنات أفكاره ... وستدفعه هذه الفكرة للمحاربة حتى فرضها وقد كان .. وصراخ صابحة أقام الفكرة على قدميها وجعلها أصلب من ذى قبل وفعلت صابحة آخر ما فى جعبتها ... أتت بأمها فى يوم يا للعجب لم يكن من أوائل الشهر ... وأقنعتها يا يحيى وكما تعودت أن تسمع منك المبررات، أقنعتها يا يحيى أن السفر بين المحافظات سيكبر العائد ويحسن المعيشة فتستطيع أن تشترى بيتا ... لا ... عدة بيوت تترك لها فيهم السطح لتربى فوقه الدجاج والحمام والبط ... واقتنعت الأم وهى بغير حاجة للاقتناع ... وهوى آخر حائط تستندين عليه بأوهام يحيى عن الفلوس والبيوت والعربات التى سيشتريها والشركة الضخمة التى سيؤسسانها ... يحيى وجابر ... وكنت الوحيدة التى تدركين كيف أحكم جابر عمل الكمين ... اكتشف العيب الذى بنفسيتك المريضة يا يحيى وقعد يحاورك ويناورك حتى أقنعك ... ولأن جابر طيب جدا وإنسان وصاحب فضل عليك يا يحيى كما ستظل تخرف إلى النهاية ... لم يخلصه أن يعرض عليك الفكرة فقط

وأنت تتعب فى التنفيذ ... لا بل اتفق مع متعهدى النقل والعملاء فى أغلب المحافظات وأتى لك باللقمة جاهزة وما عليك إلا أن تركب العربة وتحتضن «الدركسيون» وتدوس... ومطمئن جدا إليك جابر فأنت خامة طيبة ... لن تسرقه ولن تخدعه وقد جربك فى النقل الداخلى فما اكتشف فيك خدعة ولو صغيرة ... وقيادة يحيى يا صابحة بين المحافظات ... أرعبتك ... أرعشتك ... وظللت تخافين المستقبل وما تجىء به الأيام وتتصورين وتتوهمين ...

سجينة بين أربعة جدران ومستيقظة على الدوام ... قلقة وعصبية ولا تطاقين، ومرت الأيام عادية جدا ... إذا غاب يحيى عن البيت لأنه مسافر فى محافظة أخرى ... كان جابر فى مكان أخر يقضى توصيلة .. وأنت الوحيدة بين الجدران وأمك التى كنت تحضرينها إلى البيت رغم احتجاجها بالأولاد والمدرسة ... أصبحت ترفض المجىء الآن وتعقب على كلامك ومخاوفك ... عفاريت إيه يا بت ... اعقلى يا مجنونة ... أنا ست كبيرة ما أقدرش على الشحططة» ...

ثم اتسع الرزق فى يد يحيى وتمسك بالسفر أكثر وأصبحت فى هامش شعوره ... ورغم كل هذا تخافين ... وشعور داخلى يمزقك ... يقطع من قلبك فى اليوم ألف قطعة ... بأن يوما سيجىء وينفرد بك جابر وترتعدين...

وتمر بك أيام الحياة إما عادية جدا أو صاخبة جدا فى حالة

وجودهما معا ... يحيى بجوارك يرص الحشيش، وجابر أمامك يرسم خرائط لجسدك وجهاز التسجيل والتليفزيون يتنازعان، وأنت فى صمت مطبق ووحدة رهيبة، مع أفكارك تتصارعين.

ها هو يوم آخر ينقضى من عمرك يا صابحة ... يحيى فى أسيوط يحمل حديدا وغير معروف متى يعود وجابر منذ ثلاث ليال فى الإسكندرية يتفق مع العملاء ... وصلت للبيت أخيرا ... ارتاحى الآن ... ظهرك مهدود هشمته الصفيحة ... تبخل يا يحيى على بخمسة جنيهات تعطيها للملاية التى تأتى بالماء للبيوت وتدفع عشرات الجنيهات فى قطعة هباب ... المهم ... آن أوان الاستحمام بعد مجىء الماء ... لا... هذا أوان النوم ... التعب يحل بك يا صابحة ولا ضرر فى ساعتين نوم ويتبقى لديك الاستحمام والغسيل ... «فترة نوم قصيرة» ...

استيقظى الآن يا صابحة فالشمس تكاد تغيب ... إلى الحمام ... قومى بالاستحمام لعل الماء يزيل تعب اليوم ... آه ... ما هذه المصيبة ؟ ... عودى الآن بسرعة يا صابحة ... أجرى ... أغلقى خلفك باب حجرة النوم وليدمرك الخوف ... لم يبق بالصفيحة إلا الربع... جاء المعلون جابر فى نومتك واستحم بالباقى والآن يشخر بسعادة بغرفته .. تسمعين شخيره كأنه يشخر فى أذنيك ... جاء جابر ويحيى

لم يجئ وقد لا يجىء اليوم .. هذا ما عملت حسابه والساعة
الآن السابعة والمشوار إلى الزيتون رهيب وسيترك الشكوك
فى قلب أمك ولو فررت ماذا سيقول يحيى ؟

وأنت تعرفين رد فعله .. سيقتلك لو ارتاب فى شىء
وسيقتلك لو عرف أنك لم تقومى بواجب الضيافة مع جابر
فى غيابه ها .. ها .. لست وحدك اليوم يا صابحة ...
ستنامين هذه الليلة وجابر يؤنس الشقة ويؤنسك ... ها قد
جاء اليوم وأنت تنتظرين .. المجنون يدق عليك الباب ...
ردى على دقاته الصغيرة ... ماذا سيقول الرجل .. صابحة
داخل الغرفة ولا ترد ... سيقول ليحيى إنه كان جائعا
وصابحة لبخلها لم ترد .. وسيعرفك يحيى كيف تردين ..
ردى عليه ... اشتدت دقاته الآن ... إنه جائع وأكلته
المفضلة عندك .. يحيى سيزعل لأنك لم تطعمى جابر .
فالرجل صاحب أفضال تغرق يحيى إلى أعلى رأسه ... زهق
الرجل أخيرا ... عاد إلى غرفته رغم أن كل ما بالغرفة ينبئ
بأنك مستيقظة ... صوت الراديو العالى الذى لم ينتزعك
من خوفك .. حركاتك داخل الغرفة ... تروحين وتجيئين ...
وتتخبطين فى المقعدين والسرير الحديدى ... اخرجى إليه
... ردى عليه ... ربما الرجل برىء وأنت تتوهمين ...
زوجك صاحبه وأدرى به ... دائما يقول النساء ناقصات
عقل ودين وكذلك يقول عنه إنه مؤدب وابن حلال وصاحب

أفضال ... انسى ضغطاته على يديك .... تسللات عينيه
خلفك ... كلماته التى بألف معنى .. يحيى سيزعل ويثور
... لا حس لجابر الآن ... هل خرج ؟

معقول ... هل زعل ؟ ... ومعدتك لا تزال تتضارب
وتحدث أصواتا وقلبك تزداد دقاته وتعلو على صوت الراديو
... ويدك اليمنى ترتعش فيهتز السرير واليسرى واقفة
تماما ... تماما ... لو خرج كان الباب سيحدث صوتا
وخطوة القدم على السلم كانت ستصلك لكنه مازال هنا
.... ينتظر فريسته ... هل تعتقدين أن الكرسى الذى
وضعتيه خلف الباب سيمنعه من افتراسك لو أراد ؟ تحلمين
بأن يكون للغرفة شباك تلقين منه بنفسك عند بدء الهجوم
... آه تلقين بنفسك من الدور السادس وتموتين ويتمتع هو
بحشيشه وملذاته ... اقتليه قبل أن يقتلك ... ياللآسف لا
توجد أى آلة حادة فى غرفة النوم ... اجرى إلى المطبخ
واخطفى سكينا وعودى بسرعة لا ... جابر لن يصل إلى
ذلك ... هو فعلا يريدك بقوك ويتمناك ويشتهيك لكنه ليس
مجنونا لكى يغتصب زوجة صديقه .. إنه يريدك برغبتك لا
بالقوة ... صحيح إنه دنىء لكن لا يصل إلى مستوى هذه
الدناءة باغتصابك ... ما الذى يحدث بهذه المعدة الغبية ؟
تجلجل كالأجراس وتتطاحن كالرحى وكل ما بها أصبح ...
سائلا ... سائلا يريد أن يخرج وعضلتك القابضة

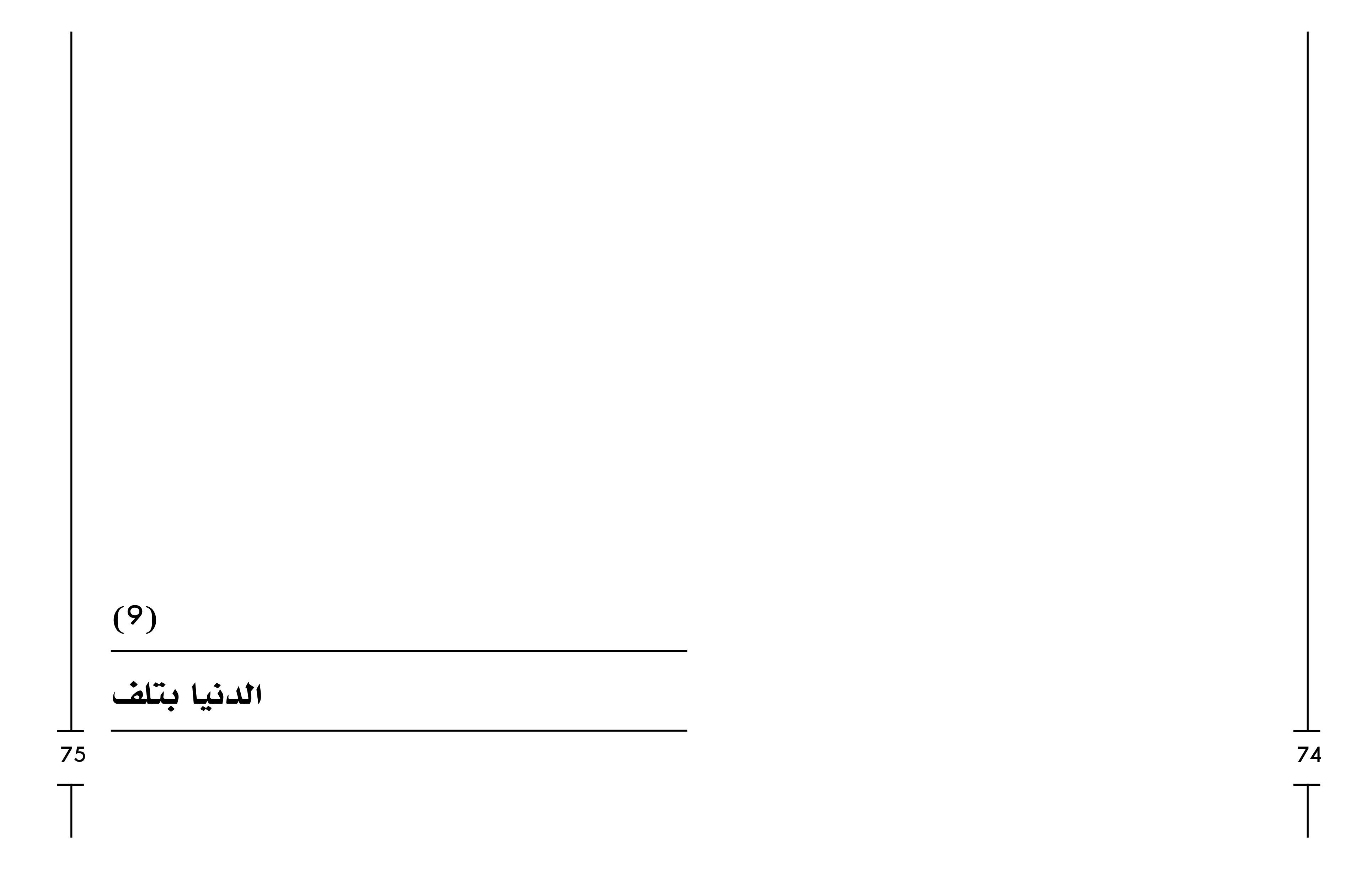
تتراخى... تتراخى... خمسة وعشرون عاما وتعودين طفلة تتبرزين على نفسك.... يالمهزلتك... حتى جلوسك على الأرض لا يستطيع إيقاف هذه المهزلة... افتحى الباب واجرى... اجرى... اجرى... اجرى... ها أنت داخل دورة المياه ولم يحدث شىء ... أقصد حدث ... فى نصف الطريق إلى الدورة وأنت تجرين حدث ... وابتلت ملابسك الداخلية واتسخت وتشوهت لكن الذى تخافينه لم يحدث ... لم يركض وراءك جابر ولم يظهر له حس ولا خبر ... اغسلى ما اتسخ ... ربما معدتك اللعينة تهدأ وتلين وهى تلقى ببقاياها العفنة إلى النيل ... ما هذا ...؟ اللعين هنا ... يدق على باب الحمام ويكاد يقتلك ... عاودتك آلام المعدة وإسهال ورعدة بالأسنان لا تتوقف ... ما الذى فعلتيه يا مجنونة ؟ ... قفزتى إلى الباب ... دفعتيه بقوة ... اصطدم برأسه ... سقط على العتبة القريبة ... جريت ... وعدوت ... أكلت الدرجات الحجرية ... اصطدمت بالسور، ووقعت أكثر من ثلاث مرات، تدفق الدم من رأسك وكوع يديك وأكثر من موضع ... جرى الناس خلفك ... والتفت الشارع إليك والموظفات والمدرسات من البلكونات التفتن إليك أيضا ومازلت تجرين .... واللحظات لا تتوقف ... وما بدأ ككل شىء فى دنيانا لا بد أن ينتهى ...

وجلست أخيرا أمامه ... أرجعت ظهرك إلى المقعد ...

استرخت رأسك قليلا ... تحنين إلى إغفاءة بسيطة ... رغم أنك مستيقظة منذ ساعة فقط ... مازالت قدمك تعدو والرجل يكلمك وقدمك تركض ... وعقلك كالتروبين الضخم الذى بدأ وأمامه سنوات ليتوقف ... الرجل يتكلم ولا إجابة ... لولا الكف الضخم التى اقتلعت رأسك والكلمات التى زلزلت أذنك: «ردى على حضرة الظابط». ما تكلمت ... لكن ما فائدة كلمات ليس لها معنى من رأس لا تملكينه ؟ مازلت تتكلمين والظابط يتكلم وبين الحين والآخر يمسح بعينيه قميص نومك وبقع الدم فوقه ويلمح استدارة الصدر فيتضخم صوته وبالكاد تلتقط كلماته: «لماذا قتلت عشيقك يا ... ؟..

والكلمات مازالت لا تحمل نفس المعنى ...

وتتساءلين ولا يخرج الصوت من فمك وتفكرين، ثم تتذكرين أنك بلا ملابس داخلية وأن هناك إسهالا قادما فى الطريق فتبعدين الأفكار بسرعة عن ذهنك وتبتسمين للضابط وتتسع ابتسامتك فتضحكين وتقهقهين ثم يهبط عليك الصمت فجأة ...



(9)

الدنيا بتلف

كانت زخات المطر تطول وتقصر ... أصبح الشارع موحلا فى بضع دقائق ... وخلا الطريق تماما ... وكنت محتميا أسفل مظلة الباصات حين أبصرت شبحا لجسد فتاة نحيلة بالكاد يبين تحت ظلال القمر الباهت، يطاردها بعض الصبية بمعاكسات كلامية انقلبت إلى مداعبات جسدية عندما ضاقت المسافة بينهم ... وتطور الأمر سريعا عندما التفتت إليهم تؤنبهم وتوبخهم ... وأمام ثورتها وسبابها الفاحش والقبيح جدا انكمشوا وتراجعوا بضع خطوات للوراء ... استدارت ... فجأة اكتشفتنى وتفحصتنى برهة قبل أن تسرع فى اتجاهى ... وهم فى أثرها بخطى متخاذلة ... وبدأت ملامحها تبين لى بالكاد ... وكانت العباءة الخليجية المقلدة بإهمال لا تكاد تخفى الجسد النحيل وبضع

77

76

أصباغ باهتة ورخيصة تلون الوجه النحيف لفتاة لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة... وفم يطرقع لبانة بتقصع ويوشك أن يصرخ فى وجه الجميع : «أنا مومس» ...

توقفت أمامى وابتسمت ثم فاجأنى ابتذالها التام ... وهى تقول : «أنا ربنا بيحبنى ومافيش حد حياخدنى أبات فى حضنه وأستريح على صدره غيرك» ...

تجاوزتها نظرتى إلى الصبية الذين كان يراقبون المشهد باندهاش ... كان الأمر قد بدأ يفلت منهم فانطلقوا فى سبابنا ... ثم السخرية منا . وأخيرا حسد مبتذل :

«أيوه يا عم ... يا بختك ... بس حاسب عليها دى قد بنتك ...»

ولما تطور الأمر إلى الاستهزاء بسنى وصلعتى ونظارتى .. ثبت عليهم نظرتى الحادة وانطلقت من فمى كلمات هادئة ممزوجة بتحذيرات ووعيد ... وسرعان ما وجدتهم ينسلون واحدا خلف الآخر وقد أدركوا تماما أن الأمر انتهى ...

بنظرة تحد وابتسامة وجدتها تراقب انسحابهم وتصر أن تندس أسفل إبطى، عباءتها المبتلة تلاصقنى وترجفنى، وخبطت جانبى بكوعها وهى تقول بحميمية :«جدع .. أنا كنت متأكدة إنك هتخلصنى منهم».

باعدت جسدى قليلا وأنا أقول بأبوة : «خلاص مشيوا ... تقدرى تروحى دلوقتى ...»

بنظرة نافذة ومبتسمة حدقت فى وهى تقول : أنت كنت فاكرنى باهرج ... أنا عايزه أبات معاك فعلا ...

توغلت نظراتى أسفل عباءتها وأنا أسألها : يعنى انتى عايزه تباتى معايا ... فعلا ؟..

هزت رأسها وهى تعيد الالتصاق بى أكثر، دافنة وجهها فى صدرى وهى تتكلم :

هو بيتك قريب ؟ ...

برزانة أجبت : أربع ساعات من هنا ...

راجعت وهى تلطم على صدرها برقة : أربع ساعات ليه ؟ هو أنت ساكن فى ليبيا :

ابتسمت : لا ساكن فى قليوب ...

سألتنى بدهشة : فين قليوب دى؟...

أشرت إلى الطريق وأنا أقول : هناخد تاكسى من هنا لرمسيس وبعدين نركب بيجو لقليوب ...

داعبتنى يدها بدلال : لا أنت بتهزر ...

هززت رأسى : لا والله ما بهزرش ... حل الأسى محل ابتسامتها وهى تتنهد ... أنا مقدرش اخرج من هنا... ماسافرتش قبل كده.

أخرجت بضعة جنيهات من جيبى ومددت يدى بهم إليها.. بحدة أشاحت بيدى وهى تقول : هو انت فاكر أنى هبات معاك عشان فلوس ...

اندهشت فاضطررت للكذب : لا طبعا . قالت وهى تعيد تفحصى : تلاقيك عشان كده قلتلى إنك ساكن فى قليوب... اندفعت ...

والله أنا ساكن فى قليوب وما كدبتش عليكى . تحبى تشوفى البطاقة ...

تحركت خطوتين للأمام ثم عادت تقول بتضرع ... أنت حتسافر دلوقتى حالا ..

أو مأت برأسى ...

بسرعة امتدت يدها اليمنى تجاه خاصرها الأيمن ويدها اليسرى إلى جهة الشمال... بوُغت.. اعتقدت لأول وهلة أنها ستفتح عباءتها لترينى كنوزها وتفاصيل جسدها ... تخشبت فى مكانى وأنا أتمنى أن يحدث ذلك فعلا ... لكننى فوجئت بها تخرج من جيبها الأيمن والأيسر مجموعة كبيرة من الأدعية وسور ياسين والمعوذتين...

همست لها بحيرة : انتى تبيعى دول ؟...

بابتسامة عريضة قالت وهى تناولنى إحداها : المعايش صعبة يا أستاذ...

قلبت فى يدى سورة ياسين التى أهدتها لى ، وأفقت عندما زجرتنى بحدة وهى تضبط يدى تتسلل إلى جيبى : تانى يا أستاذ .

توقفت يدى فى نصف المسافة وأنا أهمس ... انتى

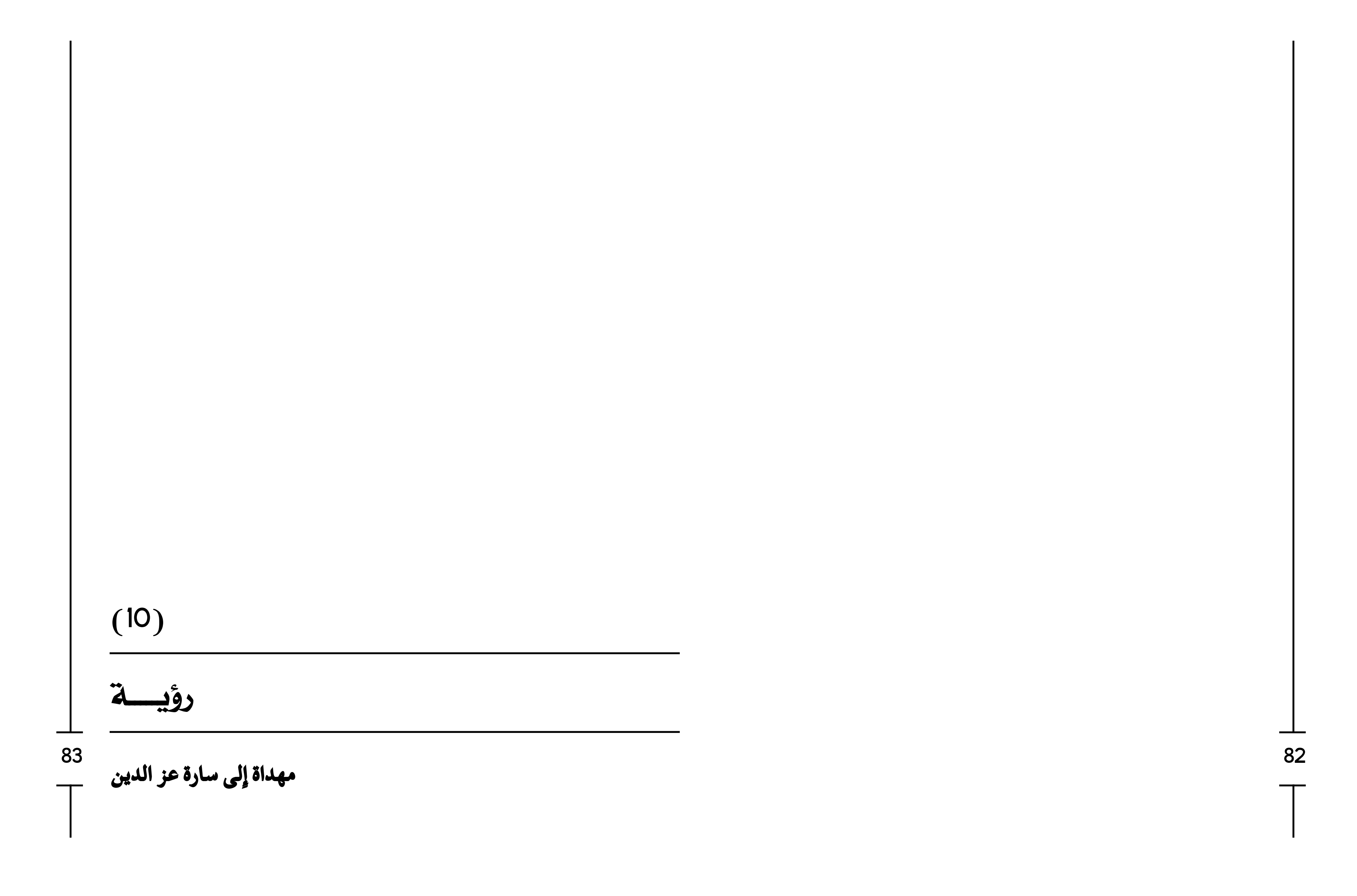
بتدهالى ليه ؟ ...

بابتسامة لن أنساها أبدا أجابت : ده قرآن يا أستاذ ... يحفظك وأنت مسافر ...

كان القمر قد اكتمل ضياؤه وصفا الجو جدا ، وبرغم أنها كانت قد ابتعدت قليلا فإن صوتى وصلها ... هاشوفك تانى...

هتفت بحماس وهى فى الجهة المقابلة : أكيد يا أستاذ ... دى الدنيا بتلف وأنا ربنا بيحبنى قوى ...

بدأت تغيب عن نظرى بينما انتابنى دفء لذيذ ...



(10)

رؤيــــة

مهداة إلى سارة عز الدين

83

82

كان مدى الهرب محدودا جدا أمامى زمانيا ومكانيا وكنت أعرف أنهم يطالبوننى بإلحاح بعد أن أيقظتنى تفجيراتهم النووية من الكهف البدائى الذى كنت قابعا به، أو أتت بهم من عالمهم البعيد إلى عالمى المتخلف ... وكنت لا مباليا إن جئت إليهم أم أتوا إلى ... كان كل الذى يهمنى هو المواجهة ... المواجهة لأنها تعنى ... فنائى ...

وفى ظل هذا المدى المحدود كنت أفكر بأسرع من أضوائهم الكاشفة وبريق ملابسهم المعدنية ولمعة خوذات إرسالهم ووميض لعبهم النارية .... وكانت بيننا لعبة أشبه بلعبة القط والفأر ... وكان إعجابهم باللعبة بمثابة ميزة جيدة لى... ربما رأوا فيها نوعا من كسر الرتابة والملل فأرخوا لى

الحبال هنيهة وكان يجب أن أتحصن جيدا مستغلا استمتاعهم بها .

لكن لا أمل ... ليس ثمة كهوف مليئة بالصلبان والأناجيل والمصاحف والأوردة تعصمني ولا نتوءات مليئة بالطواطم والهياكل والتيجان والأبخرة تنجيني ... وما عاد باقيا لدى شيء أقدمه مقابل خرزهم الملون ...

وها قد انتهى المدى الآن فانكشفت ... وزهقوا من لعبة طفولية فحاصروني وانتبهت ... وما بين ضحكاتهم المتتالية واصطكاك أسنانهم المعدنية وبين رعبي الشديد ووميض أشعة الليزر، وحينما كانت تضيق بيننا المسافة ... رحت أسألهم برجاء أن يضنوا بالإجابة ... كيف بعد كل هذا الكم من السنين عرفتم أنني عربي؟ ... وبينما كنت أتلاشى مغمورا في الشعاع ... كان لأسنانهم المعدنية نفس الصليل .

(11)

الصحبــة

حازى رأسها الصغير قرص المنضدة الزجاجى، فمضت بعينيها الملونتين تستطلع زوايا العلبة حتى كاد يتحد بؤبؤ عينيها مع الشريطة الخضراء، بينما كان أخوها الصغير يجذب فستانها الذى يحجبه عن الرؤية بصوت أوشك على الصراخ، انتبهت له والتفتت بخجل فتاة فاجأها أول حيض، واحتضنته بجهد جهيد محاولة رفعه قليلا والابتعاد به عن المنضدة وهى تشاغله برنين جرس مدلى فوق صدره، ثم وضعته برفق وهى تعدل سترته وتمسح دمعات تبقت فوق خديه، وتغنى له أغنيات فلكلورية، فاتحدت نغمات اللحن المجهول مع رنين جرسه وهو يهز رأسه من الغضب وبقايا نهنهاته التى صاحبت صوتها الرفيع، فأحدث الاتحاد شبه صخب بدأ يتنامى ويسود، لكن بغتة حل السكون مع

خطواته المتزنة ونيران نظراته التى ألقت بهما إلى جدار البهو منكمشين، وأنهضتنى فى نفس الوقت بسرعة إليه مادا له يدى، متلقيا بكل الحرص والانتباه قطعة لحم حمراء بزوائد لا تكف عن الحركة، ومستقبلا ابتسامته التى بعرض السماء وتورد خديه من فرحة طاغية بأول مولود، قبلته وأعادته إليه ورغما عنى تجاوزته نظرتى ... إليهما وكانا لا يزالان منكمشين ... ثم بدأ يمتدان إثر غيبته بالداخل ويتضاحكان، وجرأتهما بسمتى فاقتربا ودنت منى بمودة وسألتنى سؤالها المخبوء منذ رؤيتها العلبة: شيكولاته دى يا عمو :

وقبل أن أرد، كان قد عاد، وفاجأهما بالسب، فتبعثرا كرداء لخمور حينما يلتقى بأول سرير، وانبعث منها وهى متكورة كقنفذ محاصر صوت مرتعش وخفيض : آسفة يا بابى.

سمعها بإهمال، لكن عندما واجهنى ضحك ساخرا وقال: أب بالإكراه ! ... ثم أحس بامتعاضى فاستطرد ... المدام ستأتى للسلام بعد الرضاعة. أومأت برأسى ومضت عيناى تجولان فى الجدران والإطارات الخشبية الخالية منه واجتاحتنى رغبة شديدة للقىء انتصرت عليها بجهد بعد أن أرجعتها إلى رائحة «المغات».

ثم عادت إلىّ روائح لازمتنى طويلا فيها كل شىء من رائحة الرمال والبارود والعرق والدماء، وجرى لسانى بطعم

الغبار وامتلأت عيناى بالأضواء (... كان لابد أن نفر وإلا هلكنا وكان قد بلغ به الضعف منتهاه، فظل ينكفئ ويقوم ... ينكفىء ئقوم ... فعدت أجره ... تمزقنى تأوهاته واتساع بقع دمه فى كل لحظة تفوت ... وحينما شق الأرض من خلفنا صاروخ ورجانى أن أنفلت وأدعه يموت ... صرخت بك يا مصطفى وأنا أستجدى منك المساعدة، وكما كنت حازما دائما قلت بضع كلمات كحد الموسى... الدقائق لها ثمن لو تأخرنا سيتركنا الزورق وكلنا سنموت ... وأعطيتنا ظهرك يا مصطفى ... دون أن ترانى وأنا أقبله ويمتزج لعابى والتراب ... دون أن تسمعه يرجونى تقبيل الطفلين ... دون أن ترى بسمة الرضاء حتى بعد ما خبا بريق عينيه ...).

وصررت متعلقاته شاردا عاجزا عن تسليمها لولا أن صحبنى مصطفى وبيديه العريضتين احتضن الطفلين، ومعا تقبلنا العزاء ... لكنه وحده عاد يقدم أوراق البنت فى المدرسة ... ووحده عاد ينهى إجراءات المعاش ... وحده عاد... اعتقدت أنها إحدى نوبات تأنيب الضمير ...

لم أحضر عرسهما ... كنت ما أزال مثخنا بالجراح ... وها أنا عدت ... وها هى المدام تخطو بوهن الولادة الصعبة لكن ما يزال صوتها قويا وهى تنهرهما بالكف عن الصياح حتى لا يستيقظ الوليد ... ولا تزال ذراعها نشيطة وهى

تهشهما كذباب لحوح ثم تمد لى يدها اللزجة بالسلام ... وتمتد بسمتها حتى تتصل ببسمته فيتشكل أمامى زورق يشق القناة وجسد جريح ينهض وينكفئ ... ينهض وينكفئ ... يتوسل المساعدة ثم يجد راحته فى دانات الأعداء ...

(12)

ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا

عندما طلقتْ، انتحيت بها في ركن قصى بالمقهى وواسيتها كصديق، ولما تدخلت للصلح متطوعا، عاتبتنى برفق وشدت على يدى وتسللت من شفتيها ابتسامة رقيقة امتزجت بكلمات قصيرة ومحددة : لا داعى ... أغلقت هذه الصفحة وإليها لن أعود ... وحين أخبرتنى بعد شهور قليلة بحملها ... ظننت أنى لو أخبرت طليقها هذا الخبر ستتواصل لهما الحياة مرة أخرى. لكنها هذه المرة لامتنى بشدة - هى وأمها - وقالت وهى تطلعنى على المكتبة وصفوف أشرطة الكاسيت : حياتى أنا أصنعها وأخطائى أجمل ما فيها ... وانسل من الكاسيت صوت فيروز الرقيق... (إن شئت تقتلنى فأنت محكم ... من ذا يطالب سيدا فى عبده) ...

رغم ذلك سألت عنه خلسة وأرسلت إليه رسالة شفهية مع صديق مشترك ... وقابله الصديق فى المصيف ... وعاد منه بكلمتين اثنتين فقط : من هذه السيدة ... ؟ لم أعد أذكرها ... !

شددت على العمال لكى ينتهوا من دهان منزلها ... وأعدت معها ترتيب الغرف ... وكدت أتعثر فوق سطوح منزلها وأنا أولف لها إيريال التليفزيون ... وفى المستشفى الاستثمارى نالت منى الممرضة مبلغا ضخما من المال وهى تبلغنى البشارة وتبتسم : ابنتك جميلة .. وظللت أياما أحمل غذاءها بنفسى إلى المستشفى ثم أعود إلى أمها بطعام الإفطار قبيل المدفع .

ورشوت الكثيرين لكى يسمحوا لى بالسحور معهما ... وقبل خروجها بيوم ... لمحت ظهره مصادفة سائرا فى الممر الذى بنهايته حجرتها ... وتواريت كآثم فعل فعلا شائنا ... ثم اصطحبت خجلى وتوترى إليها ... لكنها صوبت لى نظرات نافذة ... وقالت وأمها منشغلة عنا بإزاحة الستائر : بيننا دم ولحم ، سيعود غدا ليصطحبنا بسيارته ..حاول أن تتصل بنا فى المساء ... ظل طبيبى النفسى يربت ظهرى وهو يقول بصوت تتصارع فيه السخرية والشفقة : ستظل هكذا ... ستظل هكذا ... وأنا أغلق على نفسى باب شقتى فى المساء وجدتنى أهرول فى كل غرفها الباردة وأصرخ : ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا ...

(13)

الثمـــن

استند بظهره إلى خلفية باب (الميكروباص) وجلس على مقعدته ...، وعند بدء تحرك (الميكروباص) أخرج علبة سجائر مكرمشة بفعل وجودها بجيب بنطلونه الميرى المهترئ عند الركبتين والمقعدة والمحاك حياكة بلدية فجة عند الوسط والمفتوح بفضوح بفضل سوستة لا تعمل كاشفا عن سروال فى لون الوحل، عزم بسجائره على الشاب الجالس بالصف الذى أمامه فرفض ... ألح، فأعاد الشاب الرفض بهزات رأس أفقية، وضع كفيه على الأرض ونهض وهو يكاد يقع على صدر الشاب ليقدم سجائره للرجل التالى الذى رفض أيضا، استند بكفه اليسرى على ساق الرجل وبعنقه دخل إلى صدر السيدة التالية وعزم أيضا، أمسكه الرجل (وكان على الأرجح زوجها) بكلتا يديه وبغيظ، فاختل

توازنه بفعل سرعة السيارة والحركة المفاجئة ... انطلق صوت خلفى حاد لسيدة عجوز ترتدى الأسود :

- أحمد ... أحمد ... حرام عليك ... اقعد يا بنى ...

وغالبا ما كان صوتها بالنسبة له يمثل قانون الجاذبية الوحيد الذى يعرفه ... لأنه اختزل كل خطواته وارتد سريعا إلى خلفية الباب مكررا نفس الجلسة .

تفرس الركاب فى السيدة العجوز ثم الشاب ذى الفانلة الداخلية الملطخة وملأتهم الأسئلة حتى قطع الشاب السكون مرة أخرى وهو يصوب نظراته إليها ويبتلع دخانه بنهم ويقول : انتى زعلتى يامه عشان بفرق سجاير .

(سكتت الأم ولم تجب) .

- عاوزانى احوش ... طب مانتى مش عاوزه تجوزينى

وبحركة مفاجئة ، شد سرواله الكالح وخبط عليه خبطتين صاحبتا كلماته ... وإيه ذنب الطير الأخرس يامه ... إيه ذنبه ..؟

صرخت سيدات (الميكروباص) وبوغت الرجال تماما وأوقف السائق السيارة بينما قفزت السيدة قفزا إلى حجره ودارت عليه وهى تحتضنه وتعدل ملابسه بيدها بهرولة ثم انخرطت فى بكاء يشبه العويل بينما خرج صوته من خلالها : معلش يامه ... معلش ... مش حاجيب سيرة الجواز تانى .

ولعل عويلها هو الذى أنقذه من بطش الرجال بالإضافة لإحساسهم بأن فى الأمر ثمة شيئا غير طبيعى ، ثم خرج من بينهم صوت لعاقل يخاطب السائق : مشى يا أسطى مافيش حاجة .

ولما اطمأنت العجوز لسكون العربة اعتدلت بجواره مسندة ظهرها لنفس مسنده تبكى بنهنهة .

انطلقت عربة نقل عام بصوت قوى وعادم ملوث بجوار (الميكروباص) ولعله ظنها طائرة لأنه من مكانه تطلع إلى الشباك المقابل وخوفا منهم لبد فى مكانه مكونا من يده اليمنى بندقية ومن إصبع السبابة ضغط الطلقات بصوت محشرج من فمه ... ثم تعجب تماما من ضحكهم وإشاراتهم المتوارية فدفن رأسه بين ساعديه ونام .



(14)

عندما يُحكم العنكبوت الخيوط

– 1 –

أعاد القط نفس المحاولة ... حاول إدخال رأسه فى الفتحة الصغيرة التى أحدثها فى الجدار الخشبى ... باءت المحاولة بالفشل ... لم يخرج منها إلا بثقبين فى رأسه ... كان الألم بسيطا لحسن حظه، لم يلبث أن سكن وهدأ بمجرد أن سمع الصيحات الصغيرة المنتشرة فى أرجاء العشة، أعاد المحاولة للمرة الأخيرة ... فشل، تراجع إلى الخلف، ابتعد بمقدار قدم عن العشة ورقد فى سكون، ظلت عيناه تجتازان الفتحات الصغيرة التى فى صدر العشة والتى صاغها السلك الرفيع بطريقة حلزونية بحيث تمنع دخوله إليها، نظر بكثير من الضيق إلى الديك الصغير الذى ينظر إليه بتشف ... توترت عضلاته ... قام من رقدته الهادئة ... جرى باتجاه العشة ثم

قـذف بـرأسه إلى الـبـاب ... صـاحت الـدجـاجـات الخـمس مذعورة وارتمى الديك فى ركن العشة.

فتح باب ... خرجت منه امرأة تحمل طفلا لم يتجاوز عمره الشهرين، نظرت بريبة إلى الممر ... ثم إلى باب آخر، وعندما رأت الباب موصدا اطمأنت، والتقطت مقشة كانت ملقاة بجوار الحائط، ألقت بالمقشة فى اتجاه القط، تراجع القط ببلادة، جرى تجاه القط طفل عمره سنتان (كان قد خرج فى إثر المرأة).

وصل الطفل إلى القط حاول ضربه بقدمه، خرج مواء رهيب من القط، تسمر الطفل فى مكانه وصرخ برعب، اجتاحت الأم ثورة عنيفة وجرت إلى القط بكثير من الهياج حتى أجلته عن المكان.

قام الديك من رقدته منتشيًا بهروب القط، تجول فى أنحاء العشة، مضى منقاره يجول رؤوس الدجاجات معبراً عن الود، أغمدت دجاجة (لا نستطيع تمييزها بشىء) منقارها فى رأسه، انتهى الالتحام بدماء غزيرة تطلى الدجاجة، أثارت الدماء حفيظة الدجاجات الأخرى، تجرأن، اعتدين عليها (لم أعرف سببا لهذا الاعتداء ولكن خمنت أن يكون السبب أحد اثنين : إما أن تكون الدجاجات قد اعتقدن أن هذا اللون الأحمر طعام ثمين أو ربما ظنن أنها فريسة سهلة)، اشتدت الضجة بالعشة، اعتقدت السيدة أن القط عاد مرة ثانية ولما

علمت بالخبر اليقين، أخرجت الدجاجة المصابة ولوثت جرحها بالطين وتركتها بالممر بعيدا عن العشة لاعتقادها بأن إعادتها مرة أخرى إلى العشة سيشعل المعركة من جديد.

أراح الطين اللين جراح الدجاجة، ضربت بجناحيها الهواء ومضت تقلد مشية الطاووس، دارت حول العشة دورتين، الأولى تخبر الدجاجات بأنها شفيت والدورة الثانية لتكيدهن، ابتعدت قليلاً عن العشة، طاردت ذبابة صغيرة حتى اقتنصتها، واجهها سلم خشبى متآكل يتكون من ثلاث درجات، ما بين الدرجة الأولى والثانية استكانت فى هدوء (على فرض أن للدجاجات حاسة للشعور بالملل) نفضت ريشها، ارتقت الدرجتين الباقيتين، انفلتت من الباب الصغير، أعطاها الرخام الأبيض المفروش على الأرض رطوبة لذيذة داعبت قدميها أحست بالانطلاق، جرت ثم قفزت قفزة خاطفة وضعتها فوق الأريكة، (لعل انطلاقها المفاجئ من الطين إلى الرخام ثم إلى قطعة الجلد السميكة أخل بتوازنها الداخلى حتى إنها قبضت عضلات الجزء الخلفى ثم أرختها فخرج من هذا الجزء سائل تشوبه الخضرة وأعتقد أيضا أن رائحة كريهة تصاحبه) انتحت بركن من الأريكة وأسلمت جناحيها إليه ونامت ... فترة صمت

– 2 –

تغير العصر كثيرا، اختفى عم صبحى وحماره العجوز، كفا عن بيع الجاز، أصبح مكانهما نظيفا وإن لم يزل سواد قاتم يكمن فى الأرضية، غزت الدراجات الصغيرة ذات الصندوق الحديدى أرجاء الحى، سبحان مغير الأحوال، حقيقة اختفاء الجاز أنقذ الحى من القذارة التى تحيط بعرباته وصحبة السوء التى تلتقى وتلتف حول عم صبحى أيام الشتاء ليشعلوا فى الجريد النار حتى يكتسبوا الدفء ويحسنوا التفكير فى غزواتهم الليلية، رغم الضجة التى تصاحب هبوط الأنبوبة مملوءة إلى الشارع وعودتها بعد فترة فارغة إلى الدراجة ورغم إصرار العاملين على ضرب الأنابيب بعضها ببعض قبل إنزالها وإرجاعها فإن هذه الضجة أهون ألف مرة من تجشؤ الحمار وتبوله على الرصيف.

لم يكن بذهن عادل أدنى فكرة عن العمل فى المؤسسة ومع ذلك فعندما أتيحت له الفرصة ألقى بصندوق الأحذية الذى كان يعمل عليه إلى الشارع (آسف قبل أن يلقيه مسح حذاءه البالى كى يقابل مدير المؤسسة) وافق المدير، بدأ العمل، مرت سنة، سنتان، وبالرغم من المرتب الضئيل استطاع بقبضته الحديدية المحافظة على التماسك.

فى المدة الأخيرة بدأ الانهيار، أهوى على خد زوجته بكف أجهض وجهها، امرأة عظيمة ... لم تصرخ... لم تبك قالت

فقط : إنها إرادة الله ... نسيت أن آخذ القرص ... ندم على فعلته ... قال لها والليل يتأهب للرحيل : كما ربينا الأول، بإذن الله سنربى الثانى.

أول احتكاك بينه وبين الأشخاص الجالسين على المقاعد وفى أصابعهم أقلام نحاسية كان بخصوص هذا المولود، اقتربت الولادة، أشار عليه زميل بأن يذهب ليأخذ سلفة، بدأ كل موظف يلقيه إلى الآخر، حتى وصل إلى المسئول، قال له: الميزانية لا تسمح، بدأ صوته يعلو ... قال له المسئول : عندما تحضر فى مواعيدك وتنجز كل مهامك ... طالب بحقك، أزعجه الحديث ... أخرجه عن شعوره، لم يحدث أنه تأخر عن موعده ولم يحدث قط أنه أخر عمل اليوم إلى الغد، أصر المسئول بإصرار عميق أن كل الشكاوى التى تصل للمؤسسة بخصوصه، أدار للمسئول ظهره، حاول أن يفعل حركة قبيحة، لم تطاوعه فتحات الأنف.

ولد المولود بإذن الله ولا حاجة للعباد ... لكن القرف من المؤسسة ظل يستفحل ويطغى على دقات القلب، اليوم أيضا وصل إلى المؤسسة متأخرا كعادته فى الشهرين الأخيرين، تغامز عليه زميله سعد، لم يعر الكلام التفاتا لكن بمجرد أن قال عنه سعد إنه لا يشبع من الجنس لدرجة أنه لم ينتظر أن تتم زوجته الأربعين يوما التى تلى الولادة، اشتعل جنونا وكانت كرامته هى الفنار الذى هداه إلى رد الفعل، ضرب

سعد ضربة بالرأس فى أنفه ... فتحت الباب لشرايين الدم لكن سعد القصير المكير تمكن من ضرب الجزء السفلى من الحزام فوقع عادل مغشيا عليه عاجزا عن التنفس، لم يشهد هذه الواقعة غير زميلين لم يتدخلا، ولما تم إسعاف المتضاربين حملت الريح كلامًا إلى المسئول، سعد وعادل تشابكا لخلاف على الإيراد ولما تساءل المسئول: الإيراد؟ أى إيراد؟ وجد الكثيرين من أولاد الحلال يتطوعون لتفسير الموضوع، والموضوع كما وصل إلى ذهنى هو ... أن بعض العمال غير الأمناء يتفقون مع بعض أصحاب المطاعم على إعطائهم بعض الأنابيب المملوءة لاستعمالها خلال بضعة أيام ثم تعاد هذه الأنابيب بعد المدة المتفق عليها وتسلم إلى الزبائن على أنها مملوءة وبحالتها المخزنية ... انتهى كلام أولاد الحلال، تصبب العرق من جبين عادل وجفت فى حلقه الكلمات وتلاقت عيناه بعينى سعد فحل محل الغضب شعور بالإخاء.

حان موعد خروج صينية المكرونة باللحم المفروم وطاجن السمك المشوى من الفرن، تأهب مدير الشئون القانونية لاستقبالهما على أن يستكمل التحقيق فى الغد، لم ير عادل رقم الأتوبيس الذى امتطاه ولكن أحس بالفطرة أنه فى الطريق إلى البيت.

- 3 -

ولأن البدروم مظلم جدًا بحكم وجوده أسفل العمارة فى مكان تجهله الشمس وبحكم انتمائه إلى طبقة محسوبا عليها الضوء كمن لها فيه وعند أول بادرة لتحرك الباب أعد نفسه للتحرك، خرج بصيص من الضوء من تلك الفتحة التى خرجت منها لم يستطع أن يبدد ظلمة البدروم، ولوجودها فى مكان مضىء وخروجها إلى مكان مظلم كما سبق الإشارة إلى ذلك لم تره ... وحتى تعتاد عيناها على الظلمة كان عليها أن تتلمس حائطا يستضيف العنكبوت والذباب ... أرض مجهضة الأحشاء ... حبال مقيدة بالأبواب لنشر الغسيل تتخبط فى رأسها ... صدر بشرى كثيف الشعر ويد فولاذية يكسوها التراب ثم قبلة بالإكراه من فم مازالت تجول به رائحة فول وبصل الصباح.

ناولته صفعة عنيفة وركلة قوية وأعقبتهما ببصقة افترشت خديه، ثم خمدت الضجة فجأة، أخطأ التدبير، لم يعد لهذا الأمر عدته، قاده الصمت إلى غرفته، سمعها فى الجانب الآخر تسبه وتنذره وتخبره بأن زوجها سيقتله ويترك جثته تغتصبها القطط.

أول مرة رآهما، كان يومًا بعيداً، منذ حوالى ثلاث سنوات، كان واقفا على الباب بعد انتهاء عمله يستجمع أفكاره ليختار من بينها فكرة يروح بها عن نفسه وكانت

الفكرة غالبا ما تكون الذهاب إلى السينما ، بمجرد أن قالت له مساء الخير حمل عن زوجها العفش ورتب معهم الغرفة واستأذن لدقائق ، وعاد ومعه قطعة من الحشيش تكفيه أربع سجائر ، وبعد محاورات كلامية اكتشف أن الرجل لا يتعاطاه وإن كان لا يمانع من تذوقه ، لف السجائر ومن تلك اللحظة أصبح لا يكاد يمر أسبوع إلا وتنصب الجلسة فيأتى بالحشيش ليشرب شايها الداكن اللون ويتمنى شفتيها المكتنزتين ثم يراقب رد فعل كلماته الخبيثة على وجهها حين تكتشف بذكائها الفطرى إيحاءات كلماته الخبيثة ، ولعل الزوج أحس بالشك لأنه امتنع فجأة عن شرب الحشيش معه وبالتالى أصبحت جلسته فى غرفتها ليس لها معنى . . . فخف التلاقى عندها وأصبحت العلاقة سلاما ورد السلام ، ومن المسلم به أن هذه العلاقة لا ترضى حبيبا ، فكيف بالله ترضى ذئبا أعجبته الفريسة ، أصبح يحوم حولها ، محاولا تصيد الكلمات منها فى غياب زوجها عن البيت ، لم يُلن رأسها ، ظل يزرع كف الصغير بالحلوى . . . كانت تشكره بخشونة ، والطفل رغم ذلك لا يأبه له ، وقف معها فى مرضها وولادتها الثانية وفى مرض الزوج الفجائى بالأعور .

لكن كل هذه الخدمات لم توقف نظرة الشفقة التى كانت ترسلها له بعيدا عن عينى زوجها ، أدركه التعب ، وجدها يوما تمشى أمام غرفته حاملة قميص النوم وأشياء أخرى

تتجه إلى دورة المياه المشتركة ، أدرك أنها تنوى الاستحمام ، دار حول البيت ، احتضن ماسورة من المواسير التى تملأ البيت وصعد عليها مسافة متر ونصف ، ومن شباك صغير ظل يراقبها . . . رآها عارية كما ولدتها أمها . . . ورأته فى البدء لصا ، همت أن تصرخ ، تداركت الموقف ، سترت نفسها ، وبعد الغضب تبسمت بسمة خفيفة وهى تسمع صوت سقوطه على الأرض ، لم تقص الموضوع على زوجها لأنه مندفع وأهوج ، ولأن ما من امرأة ترفض اشتهاء الرجل لها حتى إن كان عدوا ، اعتقد أن هذا فى صالحه ، كمن لها مرة ثانية فى البدروم ، لم يكن الأمر فى هذه المرة موفقا .

– 4 –

أحمد محمد على رجل من أعمدة الحى ، يمتلك عمارة من سبعة أدوار وبدروم وسطح ، يقف له فقراء الحى حتى لا ينسى أن يمر على أيديهم فى الأعياد والمناسبات الدينية بحفنة من القروش والملابس المستعملة وعندما يتلاقى مع وجهاء الحى الذين هم فى مستواه تتلاقى الأكف بابتسامة مصحوبة بالود وأشياء أخرى .

أحمد محمد على رجل من أذكياء الأغنياء استطاع أن يحافظ على ثروته فى ظل القوانين المتعاقبة المتصارعة ، له أيضا عدة بيوت فى أحياء أخرى ومصلى وجراج عمومى

114

وكذا ألف جنيه فى البنك، أما المنزل الذى بحينا فكان يضم معظم أفراد أسرته وبمناقشة ودية للغاية معهم أقنعهم بأن يقيموا فى منازله الأخرى ،واستفاد من أماكنهم شققا مفروشة، ولظروف الحياة والحاجة، وبرغم الفروض الدينية التى مازال يؤديها كان عليه أن يغض البصر عن أشياء تحدث داخل هذه الشقق يندى لها الجبين فعلى حد قوله : هذه الأشياء لا تضر أحدا ... فلهم دينهم ولى دين.

كانت معرفته بالقوانين جيدة، درس فى كلية الحقوق مع ابنه الأكبر وكونا «كبلا رائعا»، وبالتالى لما ظهر ذلك القانون الذى يحدد عدد الشقق المفروشة التى يجب أن يؤجرها المالك، نظرا لمعلوماته القانونية ونظرا لأنه لا يتحدى السلطة ولم يتحدها قط فى حياته، أغرى ساكنين - كانا من غير أقاربه - بترك شققهما نظير مبلغ من المال يحض على الرذائل وكون من هذا الكم الشققى فندقا من فنادق الدرجة الثانية.

لم يتعبه ساكنو السطح كثيرا لأنهم كانوا يسكنون بغير عقد إيجار، فى البداية أدخلهم القسم مرتين للقذارة التى تتسلل من أرجلهم فى الصعود والهبوط وتضر بصحة النزلاء ... وفى المرة الثالثة ترك مائة جنيه فى كف عدد منهم فأصبح السطح سطحا، الذى أتعبه جدا هو عادل ساكن البدروم لأنه كان يقيم بعقد إيجار حصل عليه نتيجة وساطة

115

أحد أصدقائه (المالك) المقربين، واليوم وصل الأمر بهذا المعتوه عادل أنه لم يقبل ثلاثمائة جنيه ويرحل، وحتى لما وصل المبلغ لخمسمائة جنيه لم تزغ عيناه، وبالرغم من أنه نام سبع ليالٍ فى القسم بتهمة معاكسة سائحة أجنبية لم تلن قناته.

أصبحت تلك الوساطة شوكة فى ظهره لا تود أن تخرج بما استنزفه من دماء وحتى ذهابه إلى صديقه الوسيط لم يجد، فقد تصلبت حبال عادل الصوتية على الرفض، وأصبح عادل الآن هو الشيطان الذى يظهر له ليلا آلاف المرات والذى ما إن يراه صباحا أو يسمع صوته أو يحدث عنه تركبه عفاريت لا تكف عن الحركة.

أخذنا السرد، نسينا فى غمرة الحديث ساكنا آخر فى البدروم يدعى منتصر لكن بالنسبة لهذا الشخص لا توجد أدنى عقبات ففى أى وقت يود فيه المالك إخلاءه سيرحب بالأمر، وكيف لا وهو خادمه ومستشاره الخاص فى إقناع الطبقة الفقيرة بالرحيل، وأيضا هو الذى يحمل أخبار تمرد عادل إلى المالك ويحمل أخبار جبروت المالك إلى عادل وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال هناك أعمال خاصة جدا يقوم بها بخلاف تنظيف شقة المالك فهو أحيانا يأتى بالمكيفات إلى بعض رواد الفندق وكلف أكثر من المرة بإحضار نساء فأحضرهن بعد ممانعة، والغريب أيضا فى الأمر أن كافة

الأشياء التى يبلغ النزلاء عن فقدها غالبا ما توجد فى غرفته أو بجوارها أو فى مسارها، ورغم ذلك لم يستغن عنه المالك وكان يكتفى فقط بتوبيخه، فكيف ينسى المرء عشرة السنين؟

– 5 –

حقيبة «سامسونيت» ... بايب ... علبة سجائر دانهل ... كأس من الويسكى الأسكتلندى ... طبق عريض من الجمبرى المصرى، وطبق أصغر منه من الكافيار الروسى ... ثلاثة عناقيد من حبات سوداء تدعى «الكريز» ... كوب من عصير الليمون يشرب منه ابن صاحب الفندق، حديث طويل متواصل يدور حول مبلغ معين لاستئجار مكان معين، يبدأ المبلغ فى الارتفاع شيئا فشيئا يصل إلى حد إزعاج صاحب محلات الروائح والعطور الكبرى، يبدأ فى تقدير منفعة المكان، يجد أن منفعة المكان الحدية أقل كثيراً مما سيدفعه، يتراجع، يقلب صاحب الفندق شفتيه ... لا يهم، رغم أن الاتفاق بينهما فشل فإنه خرج من الحديث بإمكانية تأجير البدروم بمبلغ كبير أو على أقل تقدير يستطيع الآن نقل المطابخ من الدور الأول إلى البدروم ويستفيد من جعل الدور الأول مكانا صالحا للإقامة، تلعب برأسه الفكرة، يقول لنفسه : الآن هو الوقت المناسب لطرد عادل، يضغط على زر

بجوار المكتب، يأتى إليه منتصر يسأله عن آخر أخباره مع عادل، منتصر يتحسس خده، فجأة تحل محل رأسه جمجمة ذئب ضخم تتكلم بشىء من الهمس مصحوبًا بتنهدات امرأة تجيد ممارسة البغاء، تتلاقى جمجمة الذئب بأذن دب أبله يجيد الإصغاء ولا يجيد التصرف، تنصب فى رأس الدب حكايات عن رائحة الحشيش الذى يملأ المكان الذى يشغله عادل ... القذارة التى تتركها زوجته مرتعا للذباب الذى يتصاعد إلى غرف الفندق فيضر نزلاءها ... تنتهى الحكايات، يأخذ الحديث شكلا آخر فيتحول إلى أهداف محددة عن كيفية دس قطعة من الحشيش فى غرفة عادل وإشاعة الخبر فى المنطقة، ولا مانع من كتابته فى الجرائد (القبض على زوجة وصديق زوجها يلعبان الكوتشينة على سرير الزوج)، وعندما ينشر الخبر إما أن يقتل عادل زوجته أو يطلقها ويهرب من المنطقة، وبذلك لن تكون هناك حاجة لرفع دعوى بإخلاء الغرفة ... آه ... صحيح ... حرام ... يستاهل ... مش كده ؟؟

يعود الحديث إلى الشكل المعتاد، صاحب الفندق يؤنب منتصر على تقصيره فى التنظيف، يتهمه بأنه لا يعمل وطوال النهار يسأل عنه فيقال إنه موجود فى غرفته، يبرر منتصر تصرفاته، يخرجان من المكتب ينزلان السلم الرخامى الأبيض، يصلان بهو الفندق، فى بهو الفندق أريكتان ...

يستريح عليهما النزلاء الذين يأتون فى الليل لحين فتح الباب الداخلى وأحيانا أخرى يستريح عليها طالبو الوظائف فى الفندق عندما يعلن عن ذلك فى أجهزة الإعلام.

لفتت الأريكة المواجهة للباب الذى يصل الناس بالبدروم أنظار صاحب الفندق، لمعت عيناه، قبل أن تلتقى بعينى منتصر صرخ فى عمال الفندق، فهبطوا أسرع من هبوط الظلم على الناس، طردوا الدجاجة الراقدة على الأريكة، وهو يتأمل بكثير من القرف السائل اللزج قال آتونى بعادل... رد منتصر بشماتة : ليس موجودا الآن .. سأحضر زوجته. أتت الزوجة وهى تعلم أن هناك مصيبة فى الانتصار، نظرت إلى منتصر نظرة عتاب رقيقة، بوغت، احتضن الحائط وأصبح الجمع الغفير أمامه علامة من علامات التعجب.

لما سمع صوت الصفعة ... ارتعش جسده، ولما تيقن أن الصفعة لها تذكر شفتيها المكتنزتين وشايها الداكن الأسود اللون.

فى القسم أصبح فى متاهة أكبر ... لا يدرى إن كان هو الذى قتله ... أم عادل ... أم الزوجة ... أم النوبة القلبية ... أم الشيطان ... أم الحب ... أم أن الأمر كله لا يتعدى كابوسا ثقيلا نتيجة نومه عريان الظهر.

الكاتب

*** مكاوى سعيد محمد فايد**

- مواليد القاهرة - يوليو 1955 .

*** الأعمال الأدبية:**

1- الركض وراء الضوء - مجموعة قصص 1981 - (دار النديم).
2- فئران السفينة - رواية 1991 (سعاد الصباح) - (خمس طبعات) .
3- حالة رومانسية - مجموعة قصص 1992 - (نشر خاص).
4- راكبة المقعد الخلفى - مجموعة قصص 2001 - (هيئة الكتاب).
5- تغريدة البجعة - رواية 2007 (الدار للنشر والتوزيع) - سبع طبعات، رواية 2008 (دار الآداب - بيروت) - طبعة أولى
6- سرى الصغير - مجموعة قصص 2008 - (كتاب الأخبار)

*** الكتابة للأطفال :**

1- فى مجلات ماجد وبلبل وقطر الندى وكتب الهلال للأولاد والبنات .

2- روايات أطفال «كوكب النفايات» و«صديقى فرتكوش» .

3- مسرحية «سارق الحضارات» للأطفال .

*** الجوائز الأدبية :**

1- الجائزة الأولى للرواية - مسابقة د.سعاد الصباح للإبداع العربى عام 1991 .

2- القائمة القصيرة لجائزة بوكر الدولية للرواية العربية - عام 2007 .

3- جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية عام 2008 .

* بالإضافة إلى كتابته السيناريو الوثائقى والتسجيلى والروائى وحصوله على أربع جوائز ذهبية من مهرجان الإذاعة والتليفزيون العربى وجوائز فضية وبرونزية من عدة مهرجانات دولية.

المحتوى

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوبًا على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

125

صدر مؤخراً فى سلسلة

أصوات أدبية

124